الاستفهام القرآني : دقائق ورقائق

دراسة تنظيرية تأويلية

اعــــداد

د. محمود توفيق محمد سعد

هذا البحث منشور فى حولية
كلية اللغة العربية ١٩٨٥
(فرع المنوفية)

مطبعة الأمانة
٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

إلى ابنتي هبة محمد صابر
الأمل معقود على أن تكوني هبة من الله لنا وللعلم
وأهله فحاولي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين • والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والمسلمين أجمعين •

وبعد فهذه دراسة تعنى بأسلوب الاستفهام فى القرآن الكريم ، وما يثيره من دقائق الفكر ورقائق القلب ، وهى دراسة ترتكز على جدلية العلاقة بين التنظير الفكرى والتأويل الجمالى المسلم •

ولما كان التنظير الفكرى ضرورة لمسيرة التأويل الجمالى على صراط مستقيم ، وكان بناء المعنى وتشكيله وتحبيره فى القرآن الكريم يرتكز على منهج غير منفصم عن منهج البناء والتشكيل والتحبير فى لغة العرب قبل نزول القرآن الكريم ، كان من الخير أن يتسع ميدان التنظير الفكرى فى هذه الدراسة لما كان من تدقيق النظر فى الكلمة الانسان، حتى اذا ما استقر التنظير الفكرى على الجودى استعدادا للابحار فى تماميس التأويل الجمالى المسلم اتخذت الدراسة من الكلمة الالهية المعجزة الغاية القصوى ، عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا •

المنهج : —

هذه الدراسة فى ابحارها التأويلى تحاول أن تهتدى بمنارات منهج التحليل الداخلى للنصوص ذلك المنهج الذى يتخذ من النص

مادة رئيسية ، ينظر الى كل كلمة فيه — دق مقدارها أو جل — باعتبارها عنصرا فيه ، لا باعتبارها جزءا منه . عنصرا يتفاعل مع بقية العناصر ، تفاعلا يتناول جرسه ومعناه وايحاءاته ليعطى مع بقية العناصر بنية كلية ، كأنها أفرغت افراغا واحدا ، ولا ينظر اليها قط كجزء يقف بجانب جزء آخر ينتهى الى هيكل قد يتداعى من بعد حين .

من هنا كان هذا المنهج يبصر فى كل عنصر بعدين :

— بعدا يبدو فى دقة الاستخدام وعمق التناسب والتناسق الماتع .

— وبعدا يبدو فى حدة التفاعل مع بقية العناصر فى بوتقة النص كله .

وهو اذ يعمد فى تناوله النص الى فصل العناصر بعضها عن بعض فى أثناء التحليل والتأويل انما يفعل ذلك الفصل الموقوت كيما يتوفر الباحث على رصد كثير من ملامح هذا العنصر ، وخصائصه وسماته للوقوف على مدى تناسبه وتفاعله مع بقية العناصر الأخرى ، ومع النص كبنية لغوية تكون فيها العناصر على كثرتها وتعددها واختلافها متداخلة متفاعلة يستمد كل عنصر أكسير حياته وكيانه وقيمته من بقية العناصر ، وفى الوقت ذاته يبعث هو فيها حياة وقيمة تسمو بها الى آفاق أرحب فى عالم الكلمة .

وذلك هو روح المنهج الذى تحاول هذه الدراسة أن تحبو على لا حبه ومهيعه ، دون عزوف منها عن التزود بطيبات منهج التحليل الخارجى المفتون بالاغراق فى لجى الملابسات الخارجية للنصوص لكنها لا تأخذ منه الا خير زاد .

واذا ما كانت (ذخائر الله ، وكنوز البر ، ولذة الأنس والشوق

اليه ، والفرح والابتهاج به لا تحصل فى قلب فيه غـيره ، وان كان من أهل العبادة والزهد والعلم ، فان الله ــ سبحانه ــ أبى أن يجعـل ذخائره فى قلب فيه سواه ، وهمته متعلقة بغيره ، وانما يودع ذخائره فى قلب يرى الفقر غنى مع الله ، والغنى فقرا دون الله ، والعـز ذلا دونه ، والذل عزا معه ، والنعيم عذابا دونه ، والعذاب نعيما معه) (١)٠

اذا ما كان ذلك حقيقة الحقائق فان هذه الدراسـة لا تستطيع أن تزعم أن ركبها آمن فى رحلة التنظير الفكرى ، أو تزعم أن سـفينها سالم فى ابحار التوأيل الجمالى ٠ بل انها على يقين بالغ أنها سـتكبو وستضطرب فى رحلتها وابحارها : فهل يشفع لها أنها صـدرت عن قلب لم يبلغ الرشد الروحى ، وأنها ما تعجلت ظهورها الا بغية كلمة ناقدة لها تهديها سواء السبيل فتقيم العوج ، وتسد الخلل ، وتنفى الخبث ، وتلقى فضول القول عن كاهلها لعلها تقترب يوما من الله فيفاض عـلى صاحبها من كوثر القرآن الكريم ٠

حقيقة الاستفهام وحـده

المتبادر من صيغة (الاستفعال) الدلالة على طلب ما بعد السين والتاء ، فالاستفهام طلب الفهم وقد يقال له استخبار عند من لايفرقون بين الاستفهام والاستخبار (٢) ٠

غير أن ثمت من يفرق بين الاستخبار والاستفهام وبين الاستفهام والسـؤال

---

(١) ابن القيم : الفوائد ص ١٩٠ الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ ٠ المكتبة القيمة ٠

(٢) ابن سيده : شرح المشكل من شعر المتنبى ص ١٩٢ ، شرح المفصل لابن يعيش ١٥٥/٨ ٠

ــ يذهب ابن فارس الـرازى (ت ٣٩٥) الى أن الاسـتفهام مرحلة تالية للاستخبار • اذ الاستفهام عنده ما سألت عنه ثانيا بعد أن سألت عنه أولا فلم تفهمه حق الفهم (١) •

ويذهب أبو هلال العسكرى (ت ٣٩٥) الى أن الفـرق بين الاستفهام والسؤال أن الاستفهام لا يكون الا عن جهـل أو شـك من المستفهم ، أما السؤال فقد يكون عن جهل بما يسأل عنه أو علم به (٢)•

والحق أن طلب الفهم أعلى منزلة من طلب الخبر ، فالاخبـار يطلق على ايصال الكلام الى آخر وان لم يعقل السامع منـه شىء ، والافهام لا يطلق الا على درجة من المعرفة والعـلم والادراك والوعى للكلام وهى درجة ذات درك وذروة :

يمثل الدرك الأسفل من مستوى الفهم ما حد البـلاغيون به الاستفهام اذ قالوا : هو طلب حصول صورة الشىء فى الذهن (٣) •

ليس القصد بالصورة هنا ما يتناوله الحس المشترك من وسـائل الادراك الانسانى ، بل يشـمل ما يتناوله الادراك العقلى من معـان ذات وثاقة بمدركات الحس المشترك • فالصورة تشـمل ما كان من الأمور الحسية أو العقلية المتعلقة بها •

والمراد بالذهن ما به يكون حفظ ما يتعلمه الانسـان ، فهو أعلى مقاما من العقل (٤) •

ويمثـل الذروة ما عـرفه ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١) اذ قال : « الفهم نعمة من الله على عبده ، ونور يقذفه الله فى قلبه ، يعـرف به

---

(١) الصاحبى فى فقه اللغة ص ١٥١ طبعة ١٣٢٨ هـ •

(٢) الفروق ص ٢٨ الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ / بيروت •

(٣) السعد التفتازانى : المطول ص ٢٢٦ •

(٤) أبو هلال العسكرى : الفروق فى اللغة ص ٧٧ •

ويدرك ما لا يدركه غيره ، ولا يعرفه ، فيفهم من النص ما لا يفهم غيره مع استوائهما فى حفظه ، وفهم أصل معناه » (١) .

البلاغيون وان اكتفوا بتعريف الدرك من الاســـتفهام فانهم لم يقبعوا فى واديه ، بل كانت مسيرتهم الى الذروة ذات خطا متقـدمة وان تكن متأنية . حقيقة كانت اقامتهم فى هذا الدرك طويلة ، ولعلهـا كانت عن قصد بغية التزود واتخاذ العدة ، فأكثروا من القول فى ما لا يجاوز طلب حصول صـــورة الشىء فى الذهن على الرغم من أن ذلك ليس من بضاعتهم ، ولا يفوح زهرة فى واديهم .

المهم أن حديثهم عن ما يعلق بهذا الادراك قد يكون ضرورة بالغة من قبل شد الرحال الى مدارج الذروة ، حين يكون الحديث الى من لم يذلل راحلته فى معارج العلم .

وهذه الدراسة لا تنيخ نياقها فى وديان هذا الأدرك من الاستفهام، وانما تمر فيها على ريث حينا وحينا على عجل ، استشرافا بقارئها الى ما هو جدير به .

هى — اذن — فى حل من تفصيل القول فى أدوات الاســـتفهام وخصائصها ، من حيث التصور والتصديق ، وما يطلب تصـوره بكل ... الخ وان أشارت الى ذلك عرضا .

معانى النحو فى تراكيب الاستفهام القرآنى

تمهيد : الاستفهام القرآنى نوعان :

١ — استفهام من الحق عز وجل غير محكى عن أحد من الخلق.

٢ — استفهام من الخلق يحكيه القرآن عنهم .

---

(١) التفسير القيم لابن القيم ص ٤١ جمعه / محمد أويس الندوى — مطبعة السنة المحمدية .

ان نظرنا فى بيان البلاغيين لحقيقة أسلوب الاستفهام بأنه طلب صورة الشىء فى الذهن ، فان كلمة « الذهن » ان قيدت فأريد بها ذهن المتكلم ، فان المدلول اللغوى والاصطلاحى للاستفهام لا يستقيم مع النوع الأول من الاستفهام فى القرآن الكريم : « الاستفهام غير المحكى عن أحد من الخلق » لأن الله — عز وعلا — لا يطلب ذلك ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ومن ثم فكل استفهام غير محكى فى القرآن ينبغى أن يؤول الى ما يتلاءم مع كمال الله عز وعلا .

وان أطلقت كلمة « الذهن » ولم تقيد بذهن المتكلم فشملت ذهن غيره ، كأن يسأل انسان آخر عن شىء فى حضرة ثالث غير مسئول ، ولا يريد المستفهم حصول صورة ما استفهم عنه فى ذهنه ، وانما فى ذهن ذلك الثالث ؛ فان الطلب حينئذ يكون من المعانى العرضية ، التى لا تحصر فى اطار حقيقة أو مجاز أو كناية ، فقد تكون من واحد منها ، كما هو شأن المعانى العرضية وحينئذ فان بعضا من الاستفهام فى النوع الأول يمكن أن يتحقق فيه الطلب حين لا يراد حصول صورة الشىء فى ذهن المتكلم خاصة ، وقد نبه الى شىء من هذا البهاء السبكى فقال : « الاستفهام طلب الفهم ، ولكن طلب فهم المستفهم ، أو طلب وقوع فهم لمن لم يفهم كائنا من كان » ؟

فاذا قال من يعلم قيام (زيد) لعمرو بحضور (بكر) الذى لا يعلم قيامه : هل قام زيد ؟ فقد طلب من المخاطب الفهم أعنى فهم بكر .

اذا تقرر هذا ، فلا بدع فى صدور الاستفهام ممن يعلم المستفهم عنه ، واذا سلمت ذلك انزاحت عنك شكوك كثيرة ، وظهر لك أن الاستفهامات الواردة فى القرآن لا مانع أن يكون طلب الفهم فيها مصروفا الى غير المستفهم والمستفهم عنه ، فلا حاجة الى تعسفات كثيرة من المفسرين (١) .

---

(١) عروس الأفراح حـ٢ ص ٣٠٧ .

ما ذهب اليه البهاء أقرب الى الفقه البيانى القائم على شىء من الحس اللغوى المرهف ، والاستشفاف الذوقى لواقع الكلمة المبينة الكاشفة .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا أن علينا كبلاغيين أن نلحظ فرقا بين تأويل الاستفهام المحكى عن الخلق فى القرآن على وفق مراد المحكى عنه وبين تأويله على وفق المقصود من حكاية القرآن الكريم وايراده فى سياقه الذى جاء على لاحبه ، ومقامه الذى أقيم فيه ، وذلك ما أرجو أن أوفق الى تبيان شىء منه فى أثناء ابحارنا هذا .

طبيعة هذه المعانى :

غنى عن التبيان أن كثيرا من استفهامات القرآن الكريم لا يحتاج الى جواب لأنها من عالم الشهادة (١) وانما يتولد من الأداة والتركيب فى صحبة ملابسات وقرائن أحوال على لاحب سياق عام وخاص معان كثيرة تثير ما فى العقل من دقائق الفكر وما فى القلب من رقائق الشعور .

هذه المعانى تمتاز بكثير من الخصائص والسمات ، من أبرزها ، أنه لايمكن احصاؤها ولا الاحاطة بها وحصرها ، لانها صورة لما تحرره ، وتصوره وتثيره أيضا من الدقائق والرقائق المتضطرمة والمتماوجة فى المحيط الداخلى لمن يحكى عنه القرآن الكريم ، أو لمن يتلقى ذلك الذكر الحكيم ، وتلك مما يستعصى احصاؤها والاحاطة بها .

ومما تمتاز به تلك المعانى أنها ليست بالكثيرة فحسب ، بل هى متكاثرة متنامية ، وتختلف فى تنوعها وفى درجة ظهورها وخفائها باختلاف ادراكات المتلقى لها ، فهى حينا على غاية من الظهور ، وحينا آخر أخفى من سرائر النفس العتيدة . فتستعصى على العبارة ، بل قد يكون احساس

---

(١) ابو حيان : البحر المحيط حـ٢ ص ٤١٨ .

المتلقى بتموجها فى التركيب قويا مفعما نفسه وقلبه غير أن عجزه عن الابانة عنها أو عن شىء منها أشد وأعتى ، وان كان ذا منطق وبيان •

وما تمتاز به هذه المعانى — أيضا — أنها من قبيل الافادة لا من قبيل الدلالة،فهى عندما ليست من المجاز بنوعيه فى شىء ، ويكفى لليقين بضلال الذهاب الى مجازية هذه المعانى عجز المحققين من أحبار البلاغة عن تحرير العلاقة بين هذه المعانى وبين المدلول الاصطلاحى للاستفهام، وعن تبيان من أى نوع من أنواع المجاز هذه المعانى ، وقد صرح بهذا امام المحققين المتأخرين : سعد الدين التفتازانى (ت : ٧٩١) فعلى الرغم من ذهابه الى أنها من المجاز يقول : « تحقيق كيفية هذا المجاز وبيان أنه من أى نوع من أنواعه مما لم يحم أحد حوله » (١) وهم الذين أقاموا فروقا ومعالم بين نوعى المجاز المرسل والاستعارة • أما محاولة السيد الشريف (ت : ٨١٦) تحقيق الكيفيه وبيان النوع ، فمحاولة مكشوف عوارها ، فقد عمد الى ماكان ذا يسر فى بعض وجوهه ثم حاول الهرب مما كان عسيرا بقوله « وقس على ما ذكرنا نظائره »(٢)

ومن أقوى وأصعب الكدى التى تتصدى من يحاول تحقيق كيفية المجاز وبيان نوعه فى هذه المعانى « أن الاستفهام قد يفيد معانى متعددة كالتقريع والتوبيخ والتعجيب فى نص واحد ، فاذا ادعينا أن الأداة مجاز فى احدى هذه المعانى ، فما موقفنا من غيرها ؟ وهل يمكن أن نقول انها تنقل من معناها الأصلى الى المعانى مجتمعة ؟

الواقع أن اللفظ فى المجاز ينقل من معناه الى معنى آخر ، لا الى جملة معان » (٣) •

---

(١) المطول ص ٢٣٥ •

(٢) حاشية السيد على المطول ص ٢٣٥ •

(٣) د• محمد أبو موسى : البلاغة القرآنية ص ٣٠١ •

أضف، اليه أن هذه المعانى لم تجرد أدوات، الاستفهام من معنى الاستفهام لتستعمل فيها ، بل تلك المعانى متولدة من معنى الاستفهام فيها ، و « الاستفهام مستعمل فى حقيقته ، ولما لم يناسب المقام يفهم منه معنى مناسب له من غير استعماله فيه ، الا يرى أنه لو استعمل اللفظ فيه لم يصح جعله متولدا من الاستفهام ، اذ التولد يقتضى وجود معنيين ، وفى المجاز ينصب قرينة على عدم ارادة المعنى الحقيقى ، وكم بينهما » (١) •

أقرب من القول بمجازية هذه المعانى القول بأن هذه الأدوات قد أشربت معنى كذا وكذا ، فهى متضمنة لها مع معناها الأصلى تضمنا يحدث تفاعلا بين هذه المعانى ومعنى الاستفهام فى بوتقة الأداة فيحيل مذاقها ونكهتها الى شىء آخر غير ماكانت عليه قبل التضمين،فليس النفى المستفاد من أداة الاستفهام فى سياق ما فى صحبة قرائن وملابسات مختلفة كمثل النفى المدلول عليه بلم ، ولا ، وما •• مذاقا ونكهة ، وطبيعة وتأثيرا •

وأداة الاستفهام حين تضمن معنى ما ، فذلك لا يكون على اطلاقه ، بل لما كانت أداة الاستفهام وهى على محض معناها ملاحظة لذلك المعنى وعلى صدر الهجوم عليه • (٣) فيكون التفاعل فى بوتقتها على غايته ، فلا يدع محض الاستفهام على حاله ولا محض النفى مثلا ، أو التعجب •••• الخ على حاله •

الأداة فى هذا المقام لا تتخلى قط عن معناها الأصلى ، ولا تبقيه على حاله الذى كان عليه قبل • وحقا ما قيل ان « كل ما تضمن ما ليس

---

(١) المولى احمد : شرح الفوائد ص ١٧٧ •
(٢) ابن جنى : الخصائص جـ ٢ ص ٤٦٤ •

له فى الاصل منع شيئا مما له فى الاصل ليكون ذلك المنع دليلا على ما تضمنه » (١) .

ومما يؤكد ما ذهبت اليه من أن أداة الاستفهام حين تفيد معنى آخر كالانكار ... لا تتخلى عن معنى الاستفهام توجيه عبد القاهر عدم عطف قوله تعالى : « انهم هم السفهاء » على قوله « أنؤمن كما آمن السفهاء » (البقرة / ١٣) بأن قوله « أنومن » استفهام ولا يعطف الخبر على الاستفهام (٢) على الرغم من افادة الأسلوب « أنؤمن » معنى الانكار والتعجب والاستجهال .... الخ .

أضف اليه تصريح الأئمة بأن الهمزة وام فى قوله تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) (البقرة/٦) قد تجردت تماما عن معنى الاستفهام . بل يكاد أن يجمعوا على ذلك (٣) فيما قرأت لهم . وخير من تحدث فى هذا منهم ــ عندى ــ الامام البقاعى (ت : ٨٨٥ هـ) يقول الشيخ : « أى سواء عليهم انذارك فى هذا الوقت بهذا الكتاب وعدم انذارك فيه وبعده (٤)وقد أنسلخ عن (ام) والهمزة معنى لاستفهام .

---

(٢) السيوطى : الاشباه والنظائر جـ١ ص١٠٤ .

(٢) عبد القاهر : دلائل الاعجاز ص ١٦١ ت : المراغى ط (٢) .

(٣) الكشاف ١٥١/١ + البحر المحيط ٤٤/١ ــ ٤٥ + انوار التنزيل ٢٦٧/١ .

(٤) يشير بقوله (فى هذا الوقت ...) الى وجه العدول عن المصدر الى الفعل ، وهو أن فى الفعل اشارة الى أنه صلى الله عليه وسلم قد احداث الانذار وأوجه فأدى ما عليه لكنه لم يثمر فيهم للقضاء الالهى ، فاعطاه مع التيئيس منهم معان اخرى منها التسلية له حتى لا يظن انه قصر فى التبليغ ، ومنها تبيان أن أفعاله انما هى أسباب لا تملك النتائج وان =

قال سيبويه « جرى هذا على حروف الاستفهام ـ كما جرى على حروف النداء فى قولك : اللهم أغفر لنا أيتها العصابة . انتهى .

ولعله عبر لصورة الاستفهام وقد انسلخت عن معناه افهاما لانهم توغلوا فى الكفر توغل من وصل فى الجحد الى أنه لو شـــاهد الملك « جل جلاله » يستفهمك عنه ما آمن .... » (١) انتهى .

=

تكن افعال سيد المرسلين فكيف بمن دونه ، وفى ذلك حمى لجبـــروت ومقام الألوهية وحمى لصفاءالفطرية فلا تخلط بين المقامين ، علاوة عـــلى الاشارة الى ان الاستواء المترتب عليه هذه المعانى لم يكن من قبل ذلك ، وانما كان هنا ، لانه قد بلغ بهم هذا الجحود والانكار كل مبلغ .

ذلك ما نفهم من استخدام الفعـل دون المصدر ، مضـــافا اليه ان استخدام المصدر ، لا يتأتى معه استخدام الهمزة وام وفيهما تكثير للمعنى وانماء ، فالمعنى فى سـواء عليهم انذارك وعدمه تقريرى خامد غير منقد ، بخلاف ما عليه النظم القرآنى .

(١) الآية جاءت مستأنفة من بعد الحديث عن القرآن ومنزلته وانه هدى للمتقين الذين كشف عن صفاتهم وعاقبتهم ، فكان دافعا للاستشراف الى معرفة اثره على غيرهم من الخليقة فبدأ بمن كان كفرهم صريحا ، وعبر عن كفرهم بالفعل الماضى (كفروا) فى صحبة التعبير عن افعـــال المتقين بالمضارع (يؤمنون ، يتقون .. الخ) براعة استهلا تشير الى أن هذا الفريق (حكم بكفرهم دائما حكما نفذ ومضى ، فستروا ما اقيم من الأدلة على الوحدانية عن العقول التى وهبت لا دراكه ... وداوموا على ذلك بما دل عليه السياق بالتعبير عن اضدادهم بما يدل على تجدد الايمان على الدوام ... ولعله عبر بالماضى والموضع للوصف (الكافرين) تنفيرا من مجرد ايقاع الكفر ولو للنعمة .. » ومن ثم فان قوله (الذين كفروا) فى ول القرآن يوازى قوله (الكافرون) فى سورة الكافرون .

المهم أن التغيير بالماضى وتقديم كلمة سواء يشير الى معنى الهمزة وام وأنهم قد بلغوا مبلغا لا يجدى معه الانذار ، فهم قد توغلوا فى الكفر توغلا

=

ماذا يعنى انسلاخ معنى الاستفهام عن الهمزة وأم ، أو انسلاخهما عن الاستفهام ، فيكليهما عبر البقاعى ، وهو ذو دلالة طيبة ؟

يعنى — كما يقول السيد الشريف — انهما قد انسلخ عنهما ههنا خصيصا معنى الاستفهام انسلاخا تاما بحيث لا تبقى منه بقية منهمـا حتى زال عنهما الدلالة على أحد الأمرين ، وصارتا لمجرد معنى الاستواء فان اللفظ الدال لمعنيين قـد يجرد لأحدهما ويستعمل فيه وحده كمـا فى صيغة النـداء ، فانها كانت للاختـصاص الندائى ، فجردت لمطلق الاختصاص » (١) .

حاصل هذا أن الهمزة وام فيهما معنى الاستفهام ومعنى استواء ما بعد الهمزة وما بعد (أم) فى العلم بوقوعهما وصحته حينما كانا الا فى هذه الصورة . فانهما لمجرد استواء ما بعد الهمزة وما بعد (ام) فى صحة وقوعهما من غير استفهام واعتبار علم وأخبر عنهما بالاستواء فى [illegible]ـدم النفع ، فليس الاستواء فيهما مطلقا ، بل استواء فى [illegible] (٢) وكان تقديم كلمة « سواء » هنا ، وقد اعربت خبرا [illegible]ـوه من قبيل براعة الاستهلال .

نص المحـققين على تجرد الهمزة وهى ام الباب و[illegible]ات

=

من وصل فى الحجد انه لو شاهد الملك جل جلاله [illegible] فهذا الاستفهام اللفظ يصور لنا مبلغ ما وصل [illegible] لو صاروا — فرضا — فى مقام المكاشفة فشاهدوا الحق عز [illegible] علا [illegible] ءأنذرتهم ام لم تنذرهم ، لما أمنوا بانك مرسل من عند [illegible] لوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون .

[illegible] البقاعى : نظم الدرر جـ ١ ورقة ١٧ مخطوط رقم [illegible] تفسير .

(١) السيد الشريف : حاشية على الكشاف جـ ١ ص [illegible]

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٥٣ .

الاستفهام فى هذه الصورة : صورة التسوية . يؤكد أنها وما شاكلها من أدوات الاستفهام حين تفيد معنى آخر غير الاستفهام لا تتجرد وتنسلخ عن الاستفهام ، فانه لو كان لما كان دافع قوى لاختصاص الهمزة فى هذه الصورة للتصريح بتجردها لمعنى آخر وانسلاخها عن الاستفهام واعتبار معنى التسوية معنى وضعيا فى الهمزة وأم دون معنى الانكار أو التقرير فى الهمزة لا يقوم وجها للتفرقة بالاختصاص ، بل اعتباره أقـــرب الى الأخذ بعدم التجرد مع المعانى الأخرى .

ذلك ما يمكن أن يذهب اليه ذاهب فى توجيه افادة أدوات الاستفهام معان مختلفة متكاثرة ، وأفضل منه عندى ان يكون افادة أسلوب الاستفهام لهذه المعانى من قبيل مستتبعات التراكيب ذلك أننا لا نأخذ تلك المعانى من حاق الاداة ، بل من انفرس فى كل عنصر من عناصر التركيب . من حيث هو مادة ، وتشكيلا ، وجرسا ، ومن حيث موقعه ، وعلائقه ببقية العناصر ، وسياقه وملابساته وقرائنه كل ذلك ذو حركة فاعلة فى استشفاف تلك المعانى واستنباطها من التركيب كله .

اقـــلاع السـفين :

مضى أن المعانى المستفادة من أسلوب الاستفهام القرآنى كثـيرة متداخلة تستعصى على الحصر والاحاطة ، والتحـديد والفصل ، غير أن القلب الذكى والحس المرهف قدير على الوعى بقسمات الحسن وملامحه ومخايله وان عجز المنطق والبيان عن كشفها وتعريتها لمن وهن .

لتأخذ قوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون » (البقرة / ٤٤) تجد الهمزة قد دخلت على قوله « تأمرون ... » وجلى أن ذلك لا يصلح أن يكون مناط الاستفهام بالهمزة ، فوجب قرنه بقوله « وتنسون أنفسكم » ثم يزداد المعنى نماء

وفيضا بقرنهما بقوله « وأنتم تتلون الكتاب » بهـذا يتدفق المعنى من التركيب كله لينبثق من الهمزة فيقال أن الهمزة قد أفادت تقريرهم بما تقترفه ألسنتهم ، وتنطوى عليه قلوبهم والتوبيخ لهم على ايقاعه وهم من هم — والتعجيب من حالهم الذى لا يستقيم مع ما هم عليه من تلاوة للكتاب ، فقد كانوا — أحبار يهود — يأمرون من نصحوه بالصدقة ولا يتصدقون ، واذا ما اوتوا اموال الصدقات لكى يقسموها فى مستحقها خانوا فيها واكتنزوها لأنفسهم ، وقد حذا اليوم حـــذوهم قوم نسبوا الى العلم فى عصرنا ، ولعل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون • كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (الصف ٢ — ٣) يؤكد ذلك المعنى •

واذا نظرنا فى الافعال الداخل عليهـا الهمزة ألفينا أتيناها بصيغة المضارع (تأمرون — تنسون — تتلون) وان كان ذلك قد وقع منهم من قبل نزول الآية • وجه هذا أنه يفهم منه الديمومة وكثرة التلبس بالفعل نحو قولهم : زيد يعطى ويمنع •

وعبر عن ترك أنفسهم بالنسـيان مبالغة فى الترك فكأنه لا يجرى لهم على بال ، وعلق النسيان بالأنفس توكيدا للمبالغة فى الغفلة المفرطة(١) ومما يزيد هذا التقريع والتبكيت والتسـفيه والتجهيل لهم والتحذير لعلماء هذه الأمة من أن يحذوا حذوهم قوله : « وأنتم تتلون الكتاب » الدال على تتابع القراءة فى هذا الكتاب واستطالة النظر الأمر المستوجب حسن استرشاد به ، التزام بما فيه من هدى ، « ولا يخفى ما فى تصديرها بقوله وأنتم من التبكيت لهم والتقريع والتوبيخ لأجل المخاطبة » (١) • فالتقريع حين يكون مواجهة من العلى القدير يكون وقعه أشد وانكى •

---

(١) ابو حيان : البحر المحيط جـ١ ص ١٨٣ •

ويلمح كل متدبر فى هذا الخطاب خطاب كل من كان على شاكلتهم عن هذه الأمة . فكل تال لها وفيه شيء مما فيهم يستشعر أنه المعنى بذلك التقريع وتلك المواجهة بالتسفيه والتجهيل ، فيكون مدعاة لأن يرعوى ولو بعد حين فيبقى عطاء الاستفهام فى الآية متجددا كلما تليت .

ولما كان اقتران تلك الاحداث مما لا يطاق ولا يقره عقل وان ضل سبب عن ذلك توبيخا أنكى من سابقه وأعتى فقال (أفلا تعقلون) « بمعنى أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه وكأنكم فى ذلك مسلوبو العقول لان العقول تأباه وتدفعه » (١)

فالاستفهام فى الآية كما ترى فجر منه السياق وقرائن الاحوال معان متكاثرة متداخلة ، ابصرت فيه تقريرا وانكارا ، وتوبيخا وتقريعا وتجهيلا وتعجيبا . وكشفا لضلالهم وتحذيرا من سلوك نهجهم وتنبيها على مكمن الداء فيهم ، وتصوير مفارقة ما بين فعالهم وحالهم .. الخ .

لن تستطيع أن تطعم من هذه العطاءات شيئا الا اذا تبصرت الآية كلها وجميعها ، وتفرست فى كل عنصر مادة وتشكيلا ومقاما واعتلاقا .

ولنأخذ قوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم . مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله . الا أن نصر الله قريب » (البقرة : ٢١٤) .

وتأمل كل عنصر فيه وتفرس ملامح الجمال المعجز فى بنيته فى ضوء استحضار مقام نزولها (٢) . فقد نزلت فى غزوة الخندق حين كان ما كان من جهد وابتلاء يصوره قوله تعالى : « واذ زاغت الأبصار

---

(١) الزمخشرى : الكشاف جـ١ ص ٢٢٧ ، البحر المحيط لابى حيان جـ١ ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٢) الواحدى : أسباب النزول ص ٤٠ (مؤسسة الحلبى) .

وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنـــك ابتلى المؤمنـــون وزلزلوا زلزالا شديدا » (الأحزاب : ١٠ — ١١) .

أول ما يلقاك هنا قوله تعالى : « أم حسبتم » وأم هنا منقطعـة تقدر ببل والهمزة (١) ، وهى تشير الى الانتقال من تبيان أن النـاس كانوا أمة واحدة فبعث الله الرسل فاختلف الناس فيهم فهدى من هدى وضل من ضل ، الى تبيان أن ما كان فى السابقين كائن فيهم لا محالة ، وأنهم مثلهم مبتلون ، بل وأشد منهم ابتلاء ، متى كان الابتلاء عـــلى قدر النقاء ، وأمته صلى الله عليه وسلم خير أمة أخرجت للناس فلتكن أشد الأمم ابتلاء أخذا بيدها على مدارج الاجتباء « هنـــالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا » .

التعبير بالفعل « حسب » (٢) . يوحى بخطأ ما خيـــل اليهم الا يفتنوا من بعد أن قالوا آمنا ... كما فتن الذين من قبلهم ، وذلك شأن الفعل (حسب) فى النظم القرآنى غالبا ان لم يكن دائما (٣) .

الاستفهام المستفاد من (أم) المنقطعة : المقدرة ببل والهمزة .

---

(١) ابن يعيش : شرح المفصل حـ ٨ ص٩٨ .

(٢) حسب بكسر السين فى الماضى : فعل من افعال القلوب اخوات ظن ، وفى مضارعه وجهان كسر السين وهو اجود وفتحها وهو اقيس ، وقد قرىء بهما فى المشهور . ومصدره الحسبان بكسر الحاء ، واصله من الحســاب بمعنى العد ، فاســتعمل فى الظن تشبيها لجولان النفس فى استخراج علم ما يقع بجولان اليد فى الاشياء لتعيين عددها ، ومثله فى ذلك فعل (عد) بمعنى (ظن) . ينظر التحـرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ٢/٣١٤ .

(٣) فى دراستنا (التناسب القرآنى) للدكتوراه المسجلة بمكتبة كلية اللغة العربية دراسة لوجه المفارقة بين الفعـــل (ظن) والفعـــل (حسب) فى النظم القرآنى انتهى بنا لاستقراء الناقص الى ما ذكرناه هنا .

الآيات نفسها فكلها من عند الله ، وكلها على درجة سواء من هــــذه الحيثيـــــة .

فلما أبطل مقالة الطاعنيين فى نقل الأحكام الشرعية من حــكم الى آخر أكثر ثوابا وأيسر ايجادا واتباعا ، كان المقام للتقرير بقدرة الله على ذلك وامتلاكه لذلك فجاء قوله تعالى « ألم تعلم أن الله عــــلى كل شيء قدير ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » .

الهمزة الداخلة على النفى للتقرير بما بعد النفى وما بعده خطاب للمصطفى صلى الله عليه وسلم ، فهو تقرير له بعلمه البالغ أن الله على كل شيء قدير (١) .

---

(١) اختلف العلمــاء فى الهمــزة الداخلة على النفى أمفيدة للتقرير أم للانكار يقول المعرى فى عبث الوليد ص ٢٢١ (الحــروف النــافية اذا دخلت عليها ألف الاستفهام نقلت الكلام الى حال التقرير والايجاب) .

والى مثله ذهب ابن سيدة فى شرح المشكل من شعر المتنبى وهو يشرح قول المتنبى : ألست من القوم الذين رماحهم نداهم . (البيت » وكذلك يذهب ابن جنى فى باب (نقض الاوضاع اذا اضاهها طارىء عليها » من الخصائص حـ٣ ص ٢٦٩ ومن قبله فى باب (اقرار الالفاظ على اوضاعها الاولى ...) جـ٢ ص ٤٥٧ .

وكثير من البلاغيين على ان ذلك من قبيل انكار ما دخلت عليه الهمزة (الايضاح جـ ٢ ص ٣٠٢) وشروح التلخيص (٢/٢٩٧) وهم يجعلون مآل القول بان الهمزة فى مثله للانكار هو مآل القول بانها للتقرير بما بعد النفى ولعل القائلين بانها فى هذا للانكار أرادوا طرد الباب على أن مناط تأثير الهمزة هو مدخولها .

يبين الامام السهيلى السرفى افادة الهمزة الداخلة على النفى الانكار بأن السر فى ذلك ان المستفهم عن الخبر شاك فيه متردد بين نفيه واثباته ، فحقه أن يدخل الف الاستفهام على لفظ الاثبات ، لأنه الأصل ، ثم يعطف عليه فيقال أقام زيد ام لم يقم ؟ فهذا أصل الكلام ، فاذا عدل عن هذا ، =

فالمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلمه صلى الله عليه وسلم بما ذكر من قدرته تعالى على النسخ وعلى الاتيان بما هو خير من المنسوخ وبما هو مثله ، لأن ذلك من جملة الأشياء المقهورة تحت قدرته سبحانه فمن علم شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء علم قدرته على ذلك قطعا » (١) .

= وادخل حرف الاستفهام على حرف النفي ترك الوجه الأخف في اللفظ ، وعدل الى الاثقل ، وترك الأصل وعدل الى الفرع ، علم انه لم يفعل ذلك الا منكرا على من رآه يعتقد النفي اذ يفعل فعل من يعتقده فلذلك بدأ بحرف النفي فتقول للعاصي : أليس الله يراك ، لا مستفهما ولكن مقررا ومرعبا، وقد فعل فعل من يظن انه لا يراه ، فلذلك بدأ بالنفي كالمستفهم عن النفي، وهو لا يريد الا التقرير ، فلم يتجرد الاستفهام عن المعنى الآخر بل تضمنه ...) .

ينظر أمالي السهيلي ص٤٩ تحقيق : محمد ابراهيم البنا (ط) ١٣٩٠هـ السهيلي كما ترى بدأ بتوجيه الانكار وانتهى الى التقرير مما يعزز أن المآل واحد . وان اختلفت جهة النظر في كل . ومن ثم ترى ابن هشام الانصاري يذهب الى أن الاستفهام في قوله تعالى (الم تعلم ان الله على كل شيء قدير ..) انكاري أي ألم تعلم أيها المنكر للنسخ ..

ابن هشام كما ترى اقام مذهبه على ان الخطاب لمنكري النسخ لا للنبي صلى الله عليه وسلم . وماذهب اليه ابن هشام شاحب هزيل . ولا سيما من ينظر الى الالتفات من خطاب المفرد الى خطاب الجماعة في ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير .

القول بان الهمزة في هذه الآيات للتقرير متعين اذا كان الخطاب في (الم تعلم) للنبي صلى الله عليه وسلم أو لأحد من المسلمين ، وهو مذهب الزمخشري وجماعة ، وان كان الخطاب لجنس الكافر الجاحد لقدرة الله سبحانه وتعالى فيحتمل أن يقال الاستفهام للتوبيخ بمعنى انهم وبخوا على عدم العلم وان كان مع الكافر المعاند بلسانه فقط ، فيصح ان يكون استفهام انكار وتكذيب لهم فيما يتضمنه كفرهم من قولهم ان الله تعالى ليس كذلك ..) عروس الافراح ج٢ ص ٢٩٧ .

(١) ارشاد العقل السليم ج١ ص ١٤٣ .

وفى الالتفات من خطاب الجماعة فى قوله : « من خير من ربكم » الى خطابه صلى الله عليه وسلم (ألم تعلم) اشعار بأن خير من يعلم ذلك هو المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفيه ايحاء — أيضا — الى كل تال لهذه الآيات من أمته — صلى الله عليه وسلم — بأنه مقصود بذلك التقرير ، وكأنه المخاطب به ، فيقر بذلك ويذعن أمام دعوته الى تلك الشهادة « ومن يكتمها فانه آثم قلبه » .

أما الالتفات من ضمير المتكلم نفسه فى «ننسخ — ننسها — نأت» الى الاسم الظاهر العلم على الذات الالهية ، الجامع لكل صفات الكمال ، ففيه اشعار بأنه ليس متصفا بالقدرة وحدها بل بكل الكمالات ، فاذا أقر المخاطب بأنه الله ، كان لزاما الاقرار بقدرته الشاملة ، فيخلق بقدرته من الأسباب ما يصير الشىء فى وقت مصلحة ، وفى وقت آخر مفسدة لحكم ومصالح دبرها .

فلما قرره بكمال قدرته على كل شىء كان بديعا التقرير من بعده بكمال الاستيلاء على كل شىء ، فقد يكون المرء قادرا على شىء غير مستول عليه .

فجاء قوله (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) فكان كالدليل على شمول قدرته .

«قال الحرالى (١) فهو بما هو على كل شىء قدير يفصل الآيات ، وهو بما له ملك السموات والأرض يدبر الأمر . انتهى » (٢) .

---

(١) هو ابو الحسن على بن احمد بن الحسن الحرالى (ت ٦٣٧هـ) له تفسير القرآن الكريم وكتاب مفتاح الباب المقفل ، وشرح الاسماء الحسنى ، وشرح اسماء المصطفى صلى الله عليه وسلم ورسالة الاستقامة . راجع ترجمته فى ميزان الاعتدال للذهبى ٣/١١٤ ، ولسان الميزان لابن حجر ٤/٢٩٤ .

(٢) البقاعى : نظم الدرر جـ ١ ورقة ١٠١ (مخطوط) (رقم ٢١٣ تفسير دار الكتب) .

فهو تقرير له صلى الله عليه وسلم أولا ولكل تال لها من بعـــده بعلمه باستيلاء الحق عز وجل على ما فى السموات والأرض يملك أمورهما ويصرفها كيف يشاء ٠ فينسخ من تشريعاته ما شاء بما شاء ٠

بناء قوله « ان الله له ملك السموات والأرض » على هــــذا النهج دون التعبير بالفعل «يملك» ودون قوله (ان لله ملك٠٠) لأن التعبير بالفعل لا يفيد الثبوت والاستقرار الذى هو روح الاستيلاء بل يفيد التجـدد والحدوث ، وذلك غير لائق بالسياق وبحقيقة ملك الله عز وعلا ٠

وما عليه النظم من جعل الجملة المكونة من خبر مقدم ومبتـــدأ مؤخر خبرا عن لفظ الجلالة ، مفيد لتأكيد اسناد ملك السموات والأرض له ، لتكرر الاسناد ، كما لا يخفى ٠

وقوله (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) اما أن يكون تكريرا للتقرير الأول فى (ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير) وأعاده للاستشهاد بعلمه صلى الله عليه وسلم ٠ وعلم من كان على هديه على قدرته على النسخ ومن ثم لم يعطفه عليه ٠ وفيه اشعار باستقلال العلم بكل منهما وكفايته فى الوقوف على ما هو المقصود ، فلو عطف لأشــعر أن التقرير متوقف على الجمع بين العلمين ، وما توقف على العلم بأمر اسمى مما توقف على العلم بأمرين ٠

واما أن يكون التقرير الثانى مستقلا عما قبله ، فيـــكون الأول للاستشهاد على قدرته على النسخ والآخر للاستشهاد على اقتـــداره المستولى على جميع الأشياء الأول على سبيل التضمن والآخر على سبيل اللزوم ٠

المهم أن الجملتين تضمنتا « التقرير على الوصفين اللذين بهمـا كمال التصرف ، وهما القدرة والاستيلاء على ذلك الشىء ، فينفذ فيه ما يستطيع أن يفعل ، فاذا اجتمعت الاستطاعة وعدم المانعية كمل بذلك التصرف مع الارادة ٠

وبدأ بالتقرير على وصف القدرة لأنه آكد من وصف الاستيلاء والسلطان » (١) .

ولما قرره أنه القادر على كل شىء ، المالك لما فى السموات والأرض أكد أن كل ما فى الكون وعلى رأسه الثقلان ليس لهم من دون الله من ولى ولا نصير (٢) ، وكان فى تأكيد هذا التفات من خطاب المفرد المتمثل فى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم الى خطاب الجمع المفيد لعموم الثقلين ليتناسق أولا مع مضمون هذه الجملة . ومع قوله « من دون الله » دلك « أن المنفى بدخول « من » عليه صار نصا فى العموم فناسب كون النفى عنه يكون عاما أيضا ، كان المعنى ، وما لكل فرد منكم فرد فرد من ولى ولا نصير » (٣) .

وفى ذلك تعريض بالتحذير للذين آمنوا ، ولم يبلغوا درجة المؤمنين من محالفة أمره اذا حكم عليهم بما أراد كائنا من كان لئلا تلقىبواطنهم من الهود ندوا مما لقيت ظواهر ألسنتهم بأن يستمسك بسابق فرقانها فيتثاقل عن قبول لاحقه ومكمله ، فيكون ذلك تبعا لكثرة أهل الكتاب فى آياتها بنسخ ما لحقه التغيير من أحكام فى كتابها . أفاده الحرالى (٣) .

ولما حملهم على الاقرار بالعلم بأنه على كل شىء قدير وان له ملك السموات والأرض وانه ليس لهم من دونه من ولى ولا نصير ،

---

(١) ابو حيان : البحر المحيط جا ص ٣٤٥ .

(٢) الفرق بين الولى والنصير أن الولى قد يضعف عن النصرة ، والنصير قد يكون اجنبيا عن المنصور فيكون بينهما عموم من وجه (انوار التنزيل ١/٢٢١) .

(٣) ابو حيان : البحر المحيط حا ص ٣٤٥ .

(٤) البقاعى : نظم الدرر جـ ١ ورقة ١٠٢ (مخطوط) رقم ٣١٧ تفسير بدار الكتب المصرية

ولا سيما عند الكفرة ، وكان ذلك الحمل مقتضيا منهم العمل بموجب ما أقروا به ولا سيما الترفع عما تردى فيه من كانوا قبلهم من ضلال واختلاف من بعد ما جاءهم البينات ٠ وكان أهل الكتاب الطاعنين فى النسخ قد سألوا موسى عليه السلام ما لايليق بالله تعالى أولا وما لايليق بهم كأهل كتاب ثانيا ، وكان من المسلمين من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجعل لهم ذوات أنواط ٠٠٠٠٠ الخ ناسب ذلك كله الانتقال من حملهم على الاقرار بالعلم الى حملهم على العمل به والى الأنكار على من تبدل به غيره وسلك سبيلا سواه والى الايصاء بالثقة به سبحانه فيما هو أصلح لهم مما يتعبدهم وينز لعليهم ، وان لا يقترحوا على رسولهم ما اقترحته آباء اليهود على موسى عليه السلام من الأشياء التى كانت عاقبتها وبالا عليهم (١) ٠

فجاء قوله : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم ٠٠٠٠٠ الخ (أم) هذه اختلف المفسرون فيها : أمتصلة أم منقطعة » ؟

ذكر البيضاوى الوجهين مقدما القول بالاتصال بما يفيد اختياره وجعلها معادلة للهمزة فى (ألم تعلم) أى ألم تعلموا أنه مالك الأمور قادر على الأشياء كلها بأمر وينهى ٠ كما أراد أم تعلمون وتقترحون بالسؤال كما اقترحت اليهود على موسى (٢) ٠

فهو يؤول « أم تريدون » بأم تعلمون لأنه لا يقترح المقترحات الشاقة الا بعد العلم بأن له ربا قادرا على اجابة سؤاله فالمخاطب عنده فى « ألم تعلم » ، « أم تريدون » ليس الكافر وقد اعترض عليه بأن

---

(١) الكشاف جا [illegible] ٣٠٣ [illegible] العقل السليم حـ١ ص ١٤٤

(٢) انوار التنزيل حـ١، ص ٢٢١ ٠

الفاعل فى (تعلم) غيره فى (تريدون) وشأن المتعادلين أن يكون الفاعل لما بعد الهمزة غير مغاير للفاعل لما بعد (أم) (١) .

ولعل البيضاوى لا يرى التغاير بالأفراد والجمع متى كان من قبيل واحد . علاوة على أن الاعتراض باتحاد فاعل المتعادلين ليس مسلما فقد نص على أن أم متصلة فى قول الشاعر :

وما أبالى أنب بالحزن تبس أم لحانى بظهر غيب لئيم

مع اختلاف الفاعلين (٢) .

وقد وجه العلامة عمر الفارسى (ت ٧٤٥) صاحب الكشف على الكشاف اتصال (أم) بأن (ألم تعلم) محمول على الثقة ، و (أم تريدون) الخ الدال على الاقتراح المنافى للثقة معادل له كأنه قال : اتثقون بعد العلم بما يوجب الوثوق أم لا تثقون وتقترحون كما اقترحت أسلاف اليهود ، وهو حمل على الثقة على سبيل المبالغة ، كما فى قوله تعالى : « فهل أنتم منتهون » وهذا كما تلخص للمسترشد طريقى الخير والشر ، وما فيهما من المصالح والمفاسد ، ثم تقول له : أهذا تختار أم ذلك .

والى مثله ذهب الامام البقاعى ، ولعله انتفع بما قاله عمر الفارسى يقول الشيخ : « (أم) أى أتريدون أن تردوا أمر خالقكم فى النسخ أم تريدون (أن) تتخذوا من دونه الها لا يقدر على شىء بأن

---

(١) الشهاب الخفاجى : عناية القاضى جـ ١ ص ٢٢١ (على هامش البيضاوى) .

(٢) ينظر رسالة شرح حقيقة الاستفهام لابن هشام جـ٤ ص ٥٩ (ضمن كتاب الاشباه والنظائر للسيوطى وهذه الرسالة منها نسخ مخطوطة منسوبة لابن طولون بعنوان الالمام بشرح حقيقة الاستفهام (فى دار الكتب المصرية) .

(تسالوا رسولكم) أن يجعل لكم الها غيره « كما سـئل موسى ..... من قبل » ...

وأدل دليل على ما قدرته قوله عطفا على ما تقديره فتكفروا ، فانه من سال ذلك فقد تبدل الكفر بالايمان (ومن يتبدل الـكفر بالايمـان فقد ضل سواء السبيل) (١) .

ذلك ما يذهب اليه القائلون بأن (أم) متصلة . ويذهب جمهرة الى أن (أم) هنا منقطعة (٢) على معنى بل والهمزة أى (بل أتريدون) وما فى (بل) من اضراب للانتقال من أمر الى أمر آخر وثيق الاعتلاق به كما مضى تبيـانه .

وظاهر الاستفهام الانكارى التوبيخى التأديبى والتهـديدى فى الوقت نفسه المتعلق بارادة سؤالهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن ذلك السؤال لم يقع من الذين آمنوا باعتبارهم المخاطبين فى (تريدون) لقوله (ومن يتبدل ... الخ) اذ لو كان السؤال قد وقع لكان مقتضى الظاهر أن يقول (أم تسالون) مع أنه قد تضافرت النقول فى أسباب النزول على أن ذلك السؤال قد كان وانما جاء التركيب الاستفهامى على خلاف مقتضى الظاهر ، فكان الانكار ... على ارادة السؤال لا على ايقاعه مبالغة فى انكار صحة وقوع هذا السؤال ، وايغالا فى التوبيخ عليـه ببيان أنه ما كان يليق بذى عقل فضلا عن ذى صحبة للمصطفى صلى الله عليه وسلم أن يصدر منه مجرد ارادة سؤاله ، فكيف بوقوع السؤال نفسـه ؟ فى تعليق الانكار بالارادة اشعار بمبلغ خطورة وفداحة

---

(١) البقاعى : نظم الدرر جـ ١ ورقة ١٠٢ (مخطوط) رقم ٢١٢ تفسير .

(٢) ينظر البحر المحيط ١/٣٤٤ – ٣٤٦ ، املاء العكبرى ١/٢٢٧ ، الفتوحات الالهية ١/٩٣ .

ما كان منهم ، ولولا أن كتب الله ألا يعذبهم وفيهم رحمـة الله للعالمين ـ صلى الله عليه وسلم « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » (الأنفال ٣٣) لأخذتهم الصاعقة مثلما أخذت بنى اسرائيل حين قالوا « أرنا الله جهرة » ، وفى هذا تبيان لفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم عـلى أمته ، وأنه الأمان الأعظم لمن كان فى صحبته وصحبة هديه وسنته •

ومما هو جدير بتدبره ذلك التشبيه البديع « كما سـئل موسى من قبل » فقد كان « مقتضى الظاهر أن يقال ، كما سـألوا موسى ، لأن المشبه هو المصدر من المبنى للفاعل ، أعنى سائلية المخـاطبين ، لا من المبنى للمفعول ، أعنى مسئوليه الرسول صلى الله عليـه وسلم حتى يشبه بمسئولية موسى عليه السلام ، فلعله أريد التشبيه فيهما معـا ، ولكنه أوجز النظم فذكر فى جانب المشبه السائلية وفى جانب المشبه به المسئولية ، واكتفى بما ذكر فى كل موضع عما ترك فى الموضع الآخر»(١) على سبيل الحذف الاحتباكى (٢) •

ولعل السر فى بناء هذه الصورة التشبيهية على نهج الحـذف (الاحتباك) هو الاشارة الى أنهم عند الله عز وعلا أجل من أن يشبهوا بقوم لعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم ، وأن يكـونوا معهم فى قرن ، وان صدر منهم ما صدر من بنى اسرائيل تصـديقا لما رواه الامام البخارى فى صحيحه فى كتاب الاعتصام عن النبى صلى الله عليه وسـلم :

---

(١) ابو السعود : ارشاد العقل السليم حـ١ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ •

(٢) الاحتباك لون من الوان الحذف يسمى عند بعضهم بالحـذف التقـابلى • وحقيقته ان يؤتى بكلامين بحـذف من كل منهما شىء ايجـازا يدل فيه ما ذكر من كل على ما حذف من الآخر) وقد كتبت فصلا عنه فى دراستى للدكتوراة (التناسب القرآنى) •

« لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا وذراعا ذراعا حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه • قلنا يا رسول الله : اليهود والنصارى ، قال : فمن » •

وفى هذا من التوبيخ للسائلين من الذين آمنوا ما تسكب معه العبرات ، وتنفطر له قلوب العارفين ، فليس أعز على الكريم من أن يتقاصر عن حسن الظن به ، وعما ينبغى أن يكون عليه مثله •

ومما ينمى هذا فيفعم القلب وجلا مما وقع تذييل الآية بتصوير كنائى : حيث عبر عن ترك الثقة بالآيات البينات واقتراح غيرها بتبدل الكفر بالايمان ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال : ومن يفعل ذلك السؤال أو تلك الارادة فقد ضل سواء السبيل ، لكنه اخرج على خلاف مقتضى الظاهر مبالغة فى الزجر بتصوير تلك الارادة أو الفعل فى صورة تبدل الكفر بالايمان التى تنفر منها كل نفس سوية •

وفيه من التهديد على الاقدام على مثله ما يرتدع عنده كل مجترىء ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى •

ما مضى كشف لواقع اليهود وتحذير للمسلمين من التأثر بهم والتشبه بفعالهم ، ويأتى استفهام قرآنى آخر يكشف واقع من دخل منهم الاسلام نفاقا حين يكون لهم من الولاية على المجتمع الاسلامى شىء •

يقول الحق عز وعلا : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم • أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم • أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » •

(محمد / ٢٢ ـ ٢٥)

جاءت هذه الآيات فى معرض تبيان حرص الذين آمنوا على اعلاء

كلمة الاسلام وتمنوا نزول سورة تأمر بالقتال ، فاذا انزلت استبشر الذين آمنوا طمعا فى الرضوان ، واستشاط الذين فى قلوبهم نفاق فشخصت أبصارهم جبنا وهلعا كدأب من أصابته غشية الموت ، فتوعدهم الحق على سبيل الأعراض عنهم ، ثم أقبل عليهم فى هذه الآيات اقبال الموبخ والمقرر لهم بسوء فعالهم والموقف لهم وللذين آمنوا على سوء طوية المنافقين ، فقال « فهل عسيتم ... » الخ . الاستفهام بهل مقتضاه أن يدخل على خبر للسؤال عن مضمونه ، وعسى انشاء (رجاء) فكان الوجه تأويل الانشاء بالخبر فيكون المعنى فهل يتوقع منكم الافساد وتقطيع الأرحام ان توليتم .

المتوقع (بالكسر) هنا كل من يقف على حالهم لا الله تعالى اذ لايصح ذلك منه تعالى عن ذلك علوا كبيرا . أى انهم لما عهد منهم سوء الطوية ، كانوا أحقاء أن يتوقع منهم كل من داقهم وخبر رخاوة عزمهم وعقدهم فى الايمان أن يفسدوا فى الأرض ويقطعوا الأرحام ان تولوا (١) .

الاستفهام هنا مفيد للتوبيخ والتقريع والتسفيه وكشف سوء الطوية ، والتنبيه عى مكمن الداء ، والتحذير من افساح الطريق لهم ولأمثالهم الى الولاية .

وتوليتم ، يحتمل هنا أن يكون من الولاية ، وأن يكون من الاعراض على الوجه الأول : المعنى على توبيخهم على أنهم على حال يتوقع كل من عرف أمرهم افسادهم وتقطيع الارحام ان تولوا أمور الناس .

يقوى ذلك الوجه قراءة يعقوب توليتهم (٢) « أى أن تولاكم ظلمة خرجتم معهم وساعدتموهم فى الافساد وقطيعة الرحم » (٣) .

---

(١) الكشاف ج ٣ ص ٥٣٦ ، عناية القاضى ج ٨ ص ٤٨ .

(٢) اى بالبناء لما لم يسم فاعله .

(٣) البيضاوى : [illegible] ج ٨ ص ٤٨ .

فقراءة الجماعة لتبيان حالهم اذا ما كانوا الولاة ، وقراءة يعقوب لتبيان حالهم اذا ما ولى عليهم غيرهم .

أما الوجه الثانى من تفسير (توليتم) بمعنى الاعراض عن الاسلام فلا حاجة اليه اذ الخطاب للذين فى قلوبهم مرض ، وهم المنافقون علاوة على « أن الواقع فى حيز الشرط فى مثل هذا المقام لابد أن تكون محذوريته باعتبار ما يستتبعه من المفاسد لا باعتبار ذاته ، ولا ريب فى أن الاعراض عن الاسلام رأس كل شر وفساد ، فحقه أن يجعل عمدة فى التوبيخ لا وسيلة للتوبيخ بما دونه من المفاسد » (١) المهم أن الاستفهام بهل هنا الداخل على (عسى) المترعة بفيض من التوقيع المستحيل الى حقيقة، هذا الاستفهام لم يأت على هذا النهج الا فى هذه السورة ، وفى سورة البقرة (قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا) .

فرق ما بينهما أن خبر (عسى) فى سورة البقرة منفيا (الا تقاتلوا) أى المتوقع عدم القتال ، وقد تحقق ما كان متوقعا « قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » (البقرة / ٢٤٩) .

وخبر (عسى) فى سورة محمد — عليه الصلاة والسلام — مثبتا (أن تفسدوا فى الارض وتقطعوا أرحامكم) وقد استحال اليوم ما توقع الى حقيقة واقعة . وها هو ذا ما يجسم بكلكله على حاضرنا الاسلامى يؤكد تحقق ما قررت (هل) توقعه (بعسى) .

فقه هذا البيان القرآنى فى آية سورة (محمد) عليه الصلاة والسلام فى ضوء مجريات الأحداث فى المجتمع الاسلامى يقرر حقيقة فادحة هى أن هذا الفساد فى أرض الاسلام وتقطيع أرحام المسلمين على مستوى

---

(١) ابو السعود : ارشاد العقل السليم حـ٨ ص ٩٨ .

الشعوب والحكومات ، انما مرده أن ولاة أمر المسلمين من الذين خاطبهم الحق عز وعلا بقوله « فهل عسيتم ان توليتم ... الخ » الذين وصفهم أولا بأنهم فى قلوبهم مرض وحكم عليهم آخرا بقوله « أولئك الذين لعنهم الله ..... » .

لن يستقيم حال المجتمع الاسلامى ولن تضع الحرب أوزارها فيه الا اذا استبدل الولاة الايمان بالمرض المستشرى فى قلوبهم أو كان الولاة غير الولاة . كانوا من الذين آمنوا — على الأقل — وذلك ما يتطلع اليه فى توق بالغ كل مسلم .

والمهم أن الحق قد قضى على أولئك باللعنة فأصمهم وأعمى أبصارهم فلم يدع لهم سبيلا للهدى والتفكر ، ثم رتب على ذلك الانكار عليهم فى عدم تدبر القرآن ، فقال « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها » . همزة الاستفهام داخلة فى ظاهر اللفظ على (الفاء) ومذهب سيبويه والجمهور فى هذا أن الهمزة مقدمة من تأخير وحقها أن تؤخر عن الفاء، غير أنها قدمت لانها أم أدوات الاستفهام والاستفهام له الصدارة ، فأعطيت حق التصدير على أدوات العطف من دون بقية أدوات الاستفهام (١) .

ومذهب الزمخشرى والزملكانى والبقاعى وغيرهم أن الفاء عاطفة ما بعدها على مقدر داخل فى حيز الهمزة(٢) ، ولعل الذى دفع بالزمخشرى وتابعيه الى تقدير المعطوف عليه وجعله مدخول الهمزة ، اتقاء عطف الانشاء على الخبر . غير أن الاستفهام هنا ليس محضا بل هو انكارى

---

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٣٢٣ ، البرهان للزركشى ٢/ ٣٥٠ والمغنى لابن هشام حـ١ ص١٤ .

(٢) الكشاف ١/ ٢٩٤ البرهان ٢/ ٣٥٠ — ٣٥١ .

أو استفهام مشوب بمعنى خبرى ، فيحيل فيه معنى الطلب (١) .

وما ذهب اليه هنا أن الفاء عاطفة توبيخهم على عدم تدبر القرآن على توبيخهم وتقريعهم على توقع الافساد فى الارض وقطع الارحام أن تولوا أمر المسلمين والاعتلاق بين عـــدم التدبر فى القرآن وتوقع فسادهم .... بالغ الوثاقة ، فكان جديرا بالعطف بالفاء .

وهمـــزة الانكار هـــنا داخلة على النفى مع بقـــائه على حاله فليس هو على نهج (أليس الله بكاف عبده) .

النفى هنا لم يستحل بدخول (الهمزة) الى اثبات كما الشـــأن فى كثير من هذا ، وهو على الرغم من ذلك ليس نادرا فى لغة العرب(٢) المهم أن الانكار التوبيخى هنا منصب على عدم تدبرهم القرآن .

---

(١) ولمثل هذا لا ينصب الفعل المضارع بعد الفاء فى جـــواب الاستفهام غير المحض ، كما فى قوله تعالى « قال ياوليتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى » .

الفعـــل اوارى منصـــوب لعطفـــه على (اكون) لا على أنه فى جـواب الاستفهام فى اعجزت كما زعم الزمخشرى . لأنه لا يستقيم لأمرين : الأول ان الاستفهام ليس محضا فهو متضمن التعجب .

والآخر انه ليس المعنى ان يكون منى عجز فموارة ، ألا ترى ان قولك : اين بيتك فازورك . معناه : لو عرفت لزرت ، وليس المعنى هنا : لو عجزت لواريت .

ينظر : الكشاف ٦٠٨/١ ، الاملاء للعكبرى ٤١٣/٢ ، ارشاد العقل السليم ٢٨/٣ ، نظم الدرر للبقاعى ج٢ ورقة ٢٩ .

(٢) جاء على هذا النهج قول الأعشى : —

ألم تغتمض عينـــاك ليلـــة أرمدا وبت كما بات السليم مسهدا

وقول البحترى :

« وأصل التدبر التفكر فى عاقبه الشىء ، ومـــا تؤول اليه أمره وتدبر القرآن لا يكون الا مع حضور انقلب ، وجمع الفهم وقت التلاوة ، ويشترط فيه تقليل الغذاء من الحلال الصرف وخلوص النية » (١) .

وأم فى قوله « أم على قلوب أقفالها » جعلها البيضاوى فى الرأى المقدم متصلة على معنى (أفلا يتدبرون القرآن : يتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يجسروا على المعاصى أم على قلوب اقفالها لا يصل اليها ذكر ولا ينكشف لها أمر) (٢) .

وذلك بناء على جعل قوله « على قلوب أقفالها » تمثيل لعدموصول التذكير وانكشاف الامر ةكان بهذا المعنى معادلا لـــا قبل (أم) فكأنه قيل : أفلا يتدبرون القرآن اذا وصل اليهم أم لم يصل اليهم .

وهذا على مذهب من لم يشترط أن يكون ما بعد أم مفردا أو جملة فعلية متحدة الفاعل مع ما قبلها ، بل جوز أن يكون ما بعدها جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر (٣) .

=

او لم يعلمك ابن أيوب النـــدى ويعرك منه فضـــل ما يعتـــام

الهجاء فى بيت البحترى بمنع من جعله اثباتا للتعليم ، بل هو عـلى بقاء النفى بلم على حاله ، والانكار التوبيخى على عدم التعلم .

ومنه قول المتنبى :

قالوا الم تـــكنه ، فقلت لهـــم ذلك عى اذا وصـــفناه

نهم أرادوا استفهامه عن ترك التكنية ولم يريدوا أنه قد كناه .

ينظر : عبث الوليد لابى العلاء ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ ، شرح المشكل من ابيات المتنبى بن سدة ص ١٤٧ .

(١) انوار التنزيل حـ٨ ص ٤٨ .

(٢) ابن هشام : رسالة ش[illegible]قيقة الاستفهام الأشباه والنظائر) .

وأكثر المفسرين على أن (أم) هنا منقطعة مقدرة ببل والهمزة (١) بل للانتقال من التوبيخ بعـدم التدبر الى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر والتفكر ، وهمزة التقرير للتسـجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل اليها ذكر (٢) وتنكير القلوب اشارة الى أنه يشـمل قلوبهم وقلوب من هم بهذه الصفة وتهويلا حالها وتفظيع شأنها بابهام أمرها فى القساوة والجهالة ، كأنه قيل على قلوب منكرة لا يعرف حالها ولا يقادر قدرها فى القساوة .

واضافة الاقفال الى ضميرها اشارة الى أنها اقفال مختصة بها (٣) وهى اقفال الكفر التى استغلقت فلا تفتح فهى لا تجانس الاقفـال المعهودة وقوله (أم على قلوب أقفالها) يفيد: أن وسيلة التدبر فى القرآن ليس الفعل وحده ، بل الوسيلة الرئيسة فى ذلك القلب وهذا يؤكد ما ذهب اليه من أن علوم اللغـة وغيرها مما تحصله العقول ليس بكاف لتأهيل أحبارها لأن يكون من أهل التدبر فى القرآن ، فان ثمت أمورا أخـرى لا يكون التدبر بدونها ، أشرت اليها فى دراسة أخرى (٤) .

وقد يأتى الاستفهام كاشفا عما يعتمل فى نفس قائله فى موقف ما ، وذلك ما تراه فى حوار بين فرعون وسحرته يقصه الحق عز وعلا فى سورة الاعراف يقول تعالى : « وجاء السحرة فرعون ، قالوا أ ان لنا لأجرا ان

---

(١) الكشاف ٣/٣٥٦ ، البحر المحيط ٨/٨٣ ، ارشاد العقل السليم ٨/٩٩ .

(٢) الكشاف ، ارشاد العقل الموصفين السابقين .

(٣) الكشاف ٣/٥٣٦ ، انوار التنزيل ٨/٤٩ ، ارشاد العقل السليم ٨/٩٩ ، تفسير القيم لابن القيم ص ٤٣٩ .

(٤) راجع ان [illegible] ([illegible] لتعبير القرآنى) المنشورة فى حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية [illegible] ١٩ م .

كنا نحن الغالبين • قال نعم ، وانكم لمن المقربين » (ى ١١٣ — ١١٤)
قوله (وجاء السحرة) معطوف على قوله « قالوا أرجه وأخاه ... » •

وفى الكلام ايجاز بالحذف صرح بالمحذوف فى سورة الشعراء حيث يقول « فجمع السحرة لميقات يوم معلوم » (أى / ٣٨) •

وقوله (ان لنا لأجرا) قرأ حفص عن عاصم والحرميان : نافع وابن كثير (ان) بهمزة واحدة على الخبر • وقرأ الباقون بهمزتين على الاستفهام ، وهم على أصولهم من التحقيق والتسهيل وادخال ألف بينهما على ما هو مبين فى كتب القراءات هذا الاختلاف بين القراء السبعة انما هو فى آية الأعراف أما آية الشعراء فقد أجمع السبعة على الاستفهام(١) ولعل هذا الاجماع على الاستفهام فى الشعراء هو الذى جعل أبا على الفارسى يجوز أن تكون همزة الاستفهام فى قراءة حفص والحرميين محذوفة (٢) فيكون الأسلوب استفهاميا على الوجهين (٣) •

---

(١) راجع شرح الشاطبية لابن القاصح ص ٢٠٧ ، وغيث النفع للسفاقسى ص ١٠٦ •

(٢) البحر المحيط ٤/٣٦١ ، الفتوحات الالهية ٢/١٧٤ •

(٣) حذف همزة الاستفهام ليست محل اتفاق بين العلماء ، فابن النحاس على انه لاخلاف فى انه لا يجوز الحذف الا اذا كان فى الكلام (ام) واجاز الاخفش والفراء الحذف اذا دل عليها دليل وان لم يكن فى الكلام (ام) وجعلا من ذلك قوله تعالى (وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل) (الشعراء ٢٢) حيث جعلا قبل الواو فى (وتلك) همزة استفهام انكارى •

=

وظاهر الاسلوب يرجح ذاى حيث الجواب بقوله (نعم) واختلاف القراء فى تحقيق الاستفهام وتقديره أو فى الاستفهام والخبرية له وجه سنشير اليه .

قراءة غير حفص والحرميين (أ ان لنا لأ جرا) تعطى اشارة الى أن السحرة واثقون فى الانتصار ، فليس ما يشـــغلهم الا التوثق لنفع أنفسهم .

والبقاعى يذهب الى أن السحرة ساقوا الكلام مساق الاستفهام أدبا مع فرعون فى طلب الاكرام (أ ان لنا لأجرا) فأكدوا طلبا لاخراج الوعد على حال التأكيد ...

ومن أخبر اراد الاستفهام ... » (١) .

---

(١) البقاعى : نظم الدرر ح٢ ولقة ٢٠٠ (مخطوط) رقم ٢١٣ تفسير

ومما قيل فيه بحذف همزة اســـتفهام (قال هذا ربى) فقد ذهب العكبرى الى ان (هذا ربى) مبتدأ وخبر تقديره (أهذا ربى) وكذلك قيل فى قوله تعالى (افان مت فهم الخالدون) يعنى أفهم الخالدون وقد جوز ابن سيدة حذف همزة الاستفهام فى قول المتنبى .

من طاعنى ثغر الرجـــال جآذر ... ومن الرماح دمالج وخـــلاخل

وكذلك ذهب جماعة الى ذلك فى قول الكميت ..

طربت وما شوقا الى البيض أطرب ... ولا لعبا وذو الشيب يلعب

على معنى أذو الشيب يلعب

واستدل ابن الحاجب على صحة الاســـتفهام بأنهم أوجبـــوا تصديرها لتدل ابتداء على انشاء الاستفهام ، فاذا أمن تأخيرها فأولى ازالتها بالمرة .

=

ما قاله البقاعى من أن سوق الكلام مساق الاستفهام فيه أدب مع فرعون فى طلب الاكرام • غير سديد عندى ولا سيما أن البقاعى قدم لقوله هذا بأنهم قالوا ذلك لفرعون عندما حضروا بين يديه متوثقين لنفع أنفسهم مفهمين له أنهم غالبون لا مانع لهم من ذلك الا عدم انصافهم »

قوله « لا مانع لهم ••• الخ » يفيض ببنيان سوء أدبهم معه فقد وصفوه بعدم الانصاف ، وأنهم يشترطون مسبقا قبل مباشرة سحرهم ، وذلك لا يكون الا مع من جرب عليه البخل والشح حتى مع من يناصرونه ، فكيف يتناسق هذا مع توجيهه ايرادهم الكلام مورد الاستفهام بالادب معه فى طلب الاكرام ؟ أى أدب هـذا بعد أن وصموه بعـدم الانصاف لانصاره وأعوانه على ما قدموا ؟

أضف لهذا أن البقاعى وجه التأكيد فى (أ ان لنا لأجــرا) بأنه لطلب اخراج الوعد على حال التأكيد •••• أليس فى هذا اشـارة الى ذمهم فرعون حيث يحتالون للحصول منه على وعد مؤكد ؟ فكيف يكون هذا متلائما مع أيراد الطلب تادبا معه ؟ ألا ترى أن فى الهمزة على فهم البقاعى وفى (ان) على فهمه أيضا تدافعا ؟ اما استخدام (ان) الشرطية فى « ان كنا نحن الغالبين ، فانه لا يتعارض مع ادعاء الثقة فى النصر ، ذلك أن بناء الجملة (ان كـنا نحن الغالبين) واختيار الفعل « كنـا » والفصل بنحن ، والتعبير بالوصف (الغالبين) ينفى أن يكون استخدام (ان) الشرطية دون « اذا » لعـدم التحقق والقطع • ذلك أن دخـول

=

راجع فى هذا المغنى لابن هشام ومعه حاشية الأمير ١/١٣ ، البحر المحيط ٧/١١ والفتوحات الالهية ٣/٣٧٥ ، وتفسير ابى السعود ٦/٢٣٨ واملاء العكبرى ٤/١١١ وشرح مشكل ابيات المتنبى لابن سيده ص ١٠٨ ، والبرهان للزركشى ٤/١٨١ ، ٣/١٩٥ •

(ان) الشرطية على (كان) يقربها من دلالة (اذا) وذلك لقوة دلالة (كان) على المضى لتمخضه له لأن الحدث المطلق الذى هو مدلوله مستفاد من الخبر فلا يستفاد منه الا الزمان الماضى (١) .

وقد نص السعد على أنه قد يستعمل (ان) فى غير الاستقبال قياسا اذا كان الشرط لفظ (كان) نحو (وان كنتم فى ريب) (وان كنتم فى شك) (٢) .

ويمكن أن نضيف الى ذلك أن استخدام (أن) هنا فى مقام جزمهم بوقوع الشرط انما هو للنزول على مقتضى حال فرعون ، فلعله - عليه اللعنة - لم يكن جازما بوقوع الشرط (غلبة السحرة) من هول ما رأى من عصا موسى عليه السلام . وبنى السحرة بقية الجملة (شرطا وجزاء) على مقتضى حالهم من الجزم بوقوع الشرط فأستخدموا الفعل (كان) وضمير الفصل (نحن) والوصف (الغالبين) فى جملة الشرط وبنوا جملة الجزاء على الاستفهام ليكون أشبه باستدراج فرعون الى تقرير الجائزة لهم . فالانسان مع من يشك فى انفاذه الشرط أقل تحفظا وحيطة فى الموافقة على الجزاء ، بخلافه مع يثق أنه سنفذ شرطه ، فأبرزوا شرطهم بأداة توحى لفرعون البخيل بعدم الحيطة ولذا لم يكتف فرعون بالرد بالايجاب (نعم) بل أضاف اليه أكثر مما طلبوا (نعم وأنكم لمن المقربين) .

ذلك على قراءة الاستفهام (أ ان لنا لأجرا) وكذا على حفص والحرميين مع تقدير همزة الاستفهام على ما ذهب اليه الفارسى أما على قراءة الخبر هنا ففيه اشارة الى أن من السحرة من كان لا يسىء

---

(١) السعد التفتازانى : المطول ص ١٥٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٢ - ١٦٣ .

الظن بفرعون لعدم سبق معرفة ببخله ولعلهم من السحرة غير المقربين • فحسبوا أنه على ديدن الملوك مغداق كريم فأخرجوا طلبهم مخرج الأخبار دلالة على الثقة فى وقوع المراد كما هو الشأن فى اخراج الطلب فى صورة الخبر (١) ولعل أولئك كانوا قلة ، فكان من أختار قراءة الاخبار قليل (حفص والحرميان) وعلى هذا تكون قراءة الاستفهام ناظرة الى الكثرة الغالبة من السحرة ، وقراءة الاخبار ناظرة الى تلك القلة من السحرة ، ولعه لما كان ما عليه تلك القله من حسبان غير قويم ولا يليق بحال فرعون اشار الى ذلك باجماع القراء السبعة على القراءة بالاستفهام فى آية الشعراء والتى بنيت فيها القصة عى شيء من الايجاز بخلافها فى سورة الاعراف فقد كانت ذات بسطة فكانت محلا لملاحظة حال الكثرة من السحرة وحال القله منهم • وكان للكثرة قراءة الجمهور وللقلة قراءة حفص الحوميين ذلك ما نذهب اليه ولعله على هدى •

وفى حوار آخر بين موسى وآل فرعون والسحرة يحكيه القرآن الكريم فى سورة يونس يكون فيه لأسلوب الاستفهام القدح المعلى فى أذكاء الحوار وتأجيج الصراع بين الحق والباطل فاذا بأداء الحوار من خلال أسلوب الاستفهام يتخذ طابعا تنغيميا مصورا لما أفعمت به نفوس المتحاورين من مشاعر متأججة ، وكل من ألقى السمع الى هذا الحوار وهو يتلى من ذى تقى يكاد يستحيل المسموع أمام ناظريه صورة مشخصة تتنقله فى غياهب الزمن السحيق منذ آلاف السنين •

يقول الحق عز وعلا : « ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون الى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا ، وكانوا قوما مجرمين • فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا ان هذا لسحر مبين • قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون • قالوا أجئتنا لتلفتنا عما

---

(١) ينظر شروح التلخيص ح٢ ص ٢٣٨ – ٢٣٩ •

وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء فى الارض ، وما نحـــن لكمـــا بمؤمنين • وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم • فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون • فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر ان الله سيبطله • ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الحق بكلماته ولوكره المجرمون » (يونس / ٧٥ — ٨٢) •

فى هذا الحوار خمسة استفهامات :

١ — أتقولون للحـــق لمـــا جاءكم ؟

٢ — أسحر هـــذا ؟

٣ — أجئتنا لتلفتنا ؟

٤ — ما جئتم بـــه ؟

٥ — آلسحر ؟

جلى أن بعض هذه الاستفهامات ليس فى قراءة حفص عن عـــاصم وحتى نكون على هدى من أمرنا يجمل بنا أن نشير الى أشياء ذات أثر فى وعى عطاءات هذه الاستفهامات قبل ابحارنا فى ثبج محيطها الجمالى :

أولا : قوله : اتقولون للحق •••• يحتمل ثلاثة أوجه :

أ — أن « تقولون » على ظاهره ، ومقوله محذوف •

ب — أن « تقولون » على ظاهره ، ومقوله « أسحر هذا » •

ج — أن « تقولون » بمعنى تعيبون وتذمون ، فلا يكون فى الكلام حـــذف •

ثانيا : قوله : أسحر هذا ؟ يحتمل وجهين :

أ — ان يكون من كلام موسى عليه السلام •

ب — أن يكون من كلام المجرمين •

ثالثا : قوله : « أجئتنا ••• الخ استفهام من كلام آل فرعون •

رابعا : قوله : « ما جئتم به السحر » على قراءة الجمهور لا استفهام فيه باعتبار (مـا) موصول ، والسحر خبر ، وهو أسلوب قصر طريقه التعريف •

وعلى قراءة أبى عمرو « مـا » استفهامية ، والهمزة فى (السحر) استفهامية • « وفى هذه القراءة أوجه :

أحدهما : أن « مـا » استفهامية فى محل رفع بالابتداء وجئتم به الخبر والتقدير أى شىء جئتم به كأنه استفهام انكار وتقليل للشىء المجاء به ، وآلسحر بدل من الاستفهام ولذلك أعيدت معه أداته ؛ لما تقرر فى كتب النحـو •

الثانى : أن يكون (آلسـحر) خبر مبتدأ محـذوف تقديره أهو السحر •

الثالث : أن يكون مبتدأ محذوف الخبر تقديره آلسحر هو •

الرابع : أن تكون ما موصولة بمعنى الذى ، وجئتم صلتها والموصول فى محل رفع بالابتداء وآلسحر على وجهيه من كونه خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ محذوف الخبر تقديره الذى جئتم به أهو السحر ، أو الـذى جئتم به آلسحر هو والجملة خبر (ما) وهذا الضمير هو الرابط » (١)•

يعطف القرآن الكريم قصة بعث موسى وهارون بالآيات الى فرعون وملائه على قصة بعث الرسل السابقين الى أقوامهم بثم الدال على فسحة فى زمان البعث غير أنها لا تستغرق زمان البعد بما أشار اليه ادخال الجار (من) على الظرف (بعد) وأشارت الفاء فى فاستكبروا الى أن فرعون وملاءه قد سـارعوا الى ادعاء الكبر من غير استحقاقه ، وأشار التعبير بقوله « وكانوا قوما مجرمين » الى أنهم قد طبعوا على الاجرام وجبلوا

---

(١) الجمل : الفتوحات الالهية جـ٢ ص ٢٢١

عليه وأغرقوا فى الاتصاف به ، وأنهم أبدا على أهبة القيام لنصرته ، وكل ذلك دفعهم الى الاسراع فى الطعن فى الحق من غير تأمل ولا تدبر ، ومن ثم قال « فلما جاءهم » معبرا بالفاء ولما .

موقفهم هذا من الحق جدير بأن ينكر عليهم وان يوبخوا عليه وتسفه أحلامهم ومن ثم جاء رد موسى عليه السلام متطابقا مع هذا : «أتقولون للحق لما جاءكم ؟ » .

أدخل همزة الانكار التوبيخى التسفيهى على المضارع (تقولون) «الدال على أنهم كرروه لينسخوا ما ثبت فى قلوب الناس من عظمته »(١) ومفعول القول ــ كما سبق ــ يحتمل الحذف على تقدير : أتقولون للحق لما جاءكم انه سحر » ويحتمل أن يكون الفعل (تقولون) بمعنى تعيبون وتذمون « فان القول يطلق على المكروه ، يقول فلان ، وقال فى فلان يعنى ذمه ، وفلان يخاف القلة ، وبين الناس تقاول » (٢) واللام فى (للحق) على هذا الوجه بمعنى فى شأنه ولأجله ويحتمل أن يكون مفعول (تقولون) هو قوله (أسحر هذا) بناء على أنه حكاية لمقالهم ، وهو وجه ضعيف (٣) فالأنس بالسياق أن الاستفهام فى (أسحر هذا) صادر من سيدنا موسى عليه السلام تأكيدا للانكار السابق فى قوله : (أتقولون ...) «وتكذيبا لقولهم وتوبيخا لهم على ذلك اثر توبيخ وتجميل » .

أما على أن تقولون على معناه فظاهر ، وأما على أن تقولون بمعنى تعيبون وتذمون فوجه ايثار كونه سحرا على انكار كونه عيبا بأن يقال مثلا : أفيه عيب ؟ حسبما يقتضيه ظاهر الانكار السابق انما هو التصريح

---

(١) البقاعى : نظم الدرر جـ٣ ورقة ٢٨ (مخطوط) .
(٢) المرجع السابق ، الكشاف ٢٤٧/٢ : انوار التنزيل ٥٣/٥ .
(٣) انوار التنزيل جـ٥ ص٥٣ ، [illegible] جـ٥ ص ١٨١ .

بالرد عليهم فى خصوصية ما عابوه به بعد التنبيه بالانكار السابق على أن ليس فيه شائبة عيب ما ، وما فى (هذا) من معنى القرب لزيادة تعيين المشار اليه واستحضار ما فيه من الصفات الدالة على كونه آية باهرة من آيات الله المنادية على امتناع كونه سحرا ، أى أسحر هذا الذى أمره واضح مكشوف ، وشأنه مشاهد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممن له عين مبصرة . وتقديم الخبر (سحر) على المبتدأ (هذا) للايذان بأنه مصب الانكار (١) .

وهذا التوجيه الذى اخترناه فى (أسحر هذا) يتناسق ويتناغم مع عطاء حذف معمول (أتقولون) ، وهو حذف قد جاءت به لغة العرب(٢) وله هنا عظيم الايذان بأن ما قالوه فى هذا الحق الصراح مما لا ينبغى أن يتفوه به ، ولو على نهج الحكاية ، أى أتقولون له ما تقولون من أنه سحر ؟ يعنى به أنه مما لا يمكن أن يقوله قائل ، ويتكلم به متكلم » (٣).

وفى هذا تبيان لشناعة ما يسارع اليه المجرمون فى تلقى الحق بما لو تأنوا وتأملوا ما سارعوا اليه لساخت أقدامهم خجلا .

عطاء الاستفهام فى (أسحر هذا) يتفاعل مع عطائه فى (أتقولون) ومع عطاء حذف المعمول لان ذلك كله قد خرج من مشكاة واحدة وفاضت به نفس سيدنا موسى عليه السلام المفعمة بالانكار عليهم والتسفيه لأحلامهم والتبكيت لحالهم ، والتجهيل لمقالهم .

ومما يقوى ذلك وينميه ما ذهب اليه الامام البقاعى من ان الآية أقيمت على نهج الاحتباك . « الحذف التقابلى » تقديره :

ابو السعود ارشاد العقل السليم حـ٤ ص ١٦٨ .

(٢) ابو السعود : ارشاد العقل السليم جـ٤ ص ١٦٨ .

(٣) ظ البحر المحيط حـ٥ ص ١٨١ .

١ ـ أتقولون للحق لما جاءكم (هذا سحر) •
٢ ـ أسحر هذا (حتى تقولوا فيه ذلك) •

حذف السحر أولا ، وذكره ثانيا ، وذكر القول أولا وحذفه ثانيا ولم يشر البقاعى الى السر الجمالى لبناء الآية على نهج الاحتباك ، وان يكن فهمه للآية على هذا النهج يشير الى أنه ذاهب الى أن عطاء الاستفهام فى (أتقولون) وفى (أسحر) متشابه متناغم كما سبق تبيانه ، ويشير أيضا الى أنه يذهب الى أن قوله تعالى (تقولون) على ظاهره والمقول محذوف وليس بمعنى تعيبون •

وكأنى بالبقاعى يريد ان الاستفهام الانكارى الصادر من موسى موجه الى القول والى السحر ، بمعنى أنه ينكر ان يكون هذا الحق سحرا ، ويسفه من توسوس له نفسه بذلك وان يجهر به ، فكيف يمن يجهر ، وبمن يكرر ذلك ؟

أما الاستفهام الثالث فى الآية « قالوا أجئتنا لتلفتنا ••• الخ » فهو صادر عن المجرمين من آل فرعون ، وينم عن مخادعة مكشوفة • حيث ان موسى عليه السلام لما أنكر عليهم وسفه أحلامهم وأفحمهم كان مقتضى المقام أن يكون ردهم على موسى عليه السلام اثبات اتصاف ما جاءهم بالسحر لكنهم يعلمون مبلغ عجزهم عن ذلك ، ومن ثم « عدلوا عن جوابه الى الاخبار بما يتضمن أنهم لا يقرون بحقيقته ، لانه يلزم على ذلك ترك ما هم عليه من العلو ، وهم لايتركونه ، وأوهموا الضعفاء أن مراده ـ عليه السلام ـ الاستكبار ، معللين لاستكبارهم عن اتباعه بما دل على أنه لا مانع لهم منه الا الكبر » (٢) •

---

(١) البقاعى : نظم الدرر حـ٣ ورقة ٢٨ (مخطوط) •
(٢) الموضع السابق •

فالاستفهام فى (أجئتنا ... الخ) انكارى توبيخى ، قصدوا به صرف عقول السفعاء عن شغلهم فى محاجة موسى عليه السلام ، وشغلهم بما منعوهم من اتباع موسى — عليه السلام وهو أمران :

الأول : التمسك بمنهج الآباء .

الآخر : التمسك بحقهم كأبناء الصفوة فى الترؤس .

هذان الأمران يفعلان فى السواد الاعظم فعل السحر وأشد حيث لا يسمح العامة لأحد أن يحطم شيئا منهما .

الاستفهام التوبيخى وايراده فى هذا السياق وجعله منصبا على المجىء المرتبط بهذين الأمرين أذكى فاعلية الحوار . وكشف عن خبث طوية المجرمين فى محاولة اذهاب الحق .

أما الاستفهام الرابع « قال لهم موسى : ما جئتم به آلسحر على قراءة أبى عمرو حيث زاد همزة استفهام قبل همزة الوصل فى السحر (١) وعليه فان (ما) فى « ما جئتم به » استفهامية تفيد الاحتقار لما جاءوا وانكاره ، وكأنه — عليه السلام قال : أى شىء جئتم به ، انه أحقر من أن يكون شيئا . وزاد فى بيان الاحتقار والانكار بقوله (آلسحر) وكل ذلك يتناسق ويتناغم مع قوله (ألقوا ما أنتم ملقون) وكان موسى عليه السلام بهذين الاستفهامين قد كافأهم عندما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم عندما أتى بالحق . ذلك ما تعطيه قراءة أبى عمرو .

أما قراءة الجمهور (ما جئتم به السحر) فانها تفيد أنهم حين قالوا فى ما أتى به من حق انه سحر . وكان موسى عليه السلام قرر أن

---

(١) شرح الشاطبية لابن الناصح ص ٢٢٠ ، غيث النفع للسفاقسى ص ١٢٦ .

ما يلقونه أحقر من أن يلقى له بالا (ما أنتم ملقون) فلما ألقوا وكانوا قد سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، ما كان من موسى عليه السلام الا أن يقرر قصر السحر على ما جاءوا به ، اللازم له نفى أن يكون ما أتى هو به سحرا كما زعموا ، ومن ثم جاء بعد أسلوب القصر على قراءة الجمهور لقوله (ما جئتم به السحر) بقوله : ان الله سيبطله، والرد على قولهم المؤكد (ان هذا السحر بين) بأسلوب قصر كما تفيده قراءة الجمهور أقوى ولا سيما أنه قصر صفة على موصوف فهو من قبيل قصر القلب . ذلك أن المجرمين حين أرادوا التسلل الى الخديعة لضعفاء العقول تحت ستار أسلوب الاستفهام الانكارى فى (أجئتنا) كان الأقوى أن يغلق ذلك الباب دونهم حتى لا يتمادوا فيه ، فلطمهم بأسلوب القصر ، ولا سيما حين يكون أسلوب قصر صفة على موصوف قلبا ، فهو أعتى فى القام الخصم حجرا ، ومثله تراه فى (تعالوا انما نحن مصلحون ، ألا انهم هم المفسدون) .

ومما ينمى هذا المعنى ويزكيه أن عقب عليه بقوله « ان اللهسيبطله ان الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون».

وقد يأتى الاستفهام منبها الاذهان الى أن ما يستفهم عنه أمر جدير بالاهتمام ، والتوقف عنده ، والتفتيش فيه لوعى شىء مما فيه من أسرار وأنوار بها صلاح المجتمع وسعادته ، ترى ذلك باديا فى قوله تعالى :

« هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين ... » (الذاريات:٢٤).

فى ذلك الاستفهام تفخيم لشأن حديث ضيف ابراهيم عليه السلام، وفيه تعجيب مثير للملتقى ، محرك لوجدانه وفكره ، دافع له الى الوقوف على ما استفهم عنه ، لأنه يأخذ بلبه ، فلا يدع فيه لغيره شىء،

وذلك هو أسر الحديث وهيمنته ، وتلك « عادة العرب فى الاعـــلام بالأمور الماضية ، وان كان المخبر عالمـا بأن المخاطب لا علم له بذلك ، لأن المقصود ليس الا التنبيه على أن ذلك الأمر مما ينبغى الاهتمام به والبحث عنه لتعرف ما فيه من الأمور الجليلة » (١) .

وفى افراد كاف الخطاب فى (أتاك) المراد فى المقـــام الأول سيد المرسلين صلى الله عيه وسلم ، اشارة الى أنه لا يفهم ما فى حديث ضيف ابراهيم عليه السلام من أسرار وأنوار حق فهمه سواه صلى الله عليه وسلم .

وفى ادخال (هل) على الفعل المـاضى (أتاك) اشارة الى أن ذلك الحديث لم يكن عنده صلى الله عليه وسلم من قبل ، وانما علمـــه من طريق الوحى .

وفى اسناد الفعل (أتى) اللائق بالمعانى والأزمان(٢) الى الحديث تشخيص لذلك الحديث وكأنه صار هو الذى يأتى اليك شـــوقا اليك وايناسا وترويحا بسماع حديث أبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام .

وفى التعبير عن قصة ابراهيم مع الملائكة بالحديث اشارة الى أنه لم يتقدم له علم به من قبل الوحى وانما هو شىء حـدث له صلى الله عليه وسلم . والى أنه سيوحى هنا على سبيل الايجاز . لا الاطنـاب الملائم للفظ القصة الدال على التتابع (٣) .

---

(١) البقاعى : نظم الدرر حـ٥ ورقة ٢٦٢ (مخطوط) رقم ٢١٣ تفسير

(٢) مناط الفرق بين الفعل (جاء) والفعل (أتى) ان جاء يقال فى الجواهر والاعيان وأتى فى المعانى والازمات ـ ينظر البرهان فى علـوم القرآن للزركشى ٤/٨٠ .

(٣) ينظر : الفروق فى اللغة للعسكرى ص ٣٢ ـ ٣٣ .

كرر القرآن الكريم ذلك فى غير موطن (١) نتأمل هنا ما فى النازعات من قوله تعالى : « هل أتاك حديث موسى • اذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى • اذهب الى فرعون انه طغى » ••• الى « ان فى ذلك لعبرة لمن يخشى » •

جاءت تلك الآيات فى هـــذه الســـورة عقب تبيان أهوال يوم القيامة وما يكون قبله من أحداث يختمها بقوله (فانما هى زجـــرة واحدة ، فاذا هم بالساهرة) ثم يورد من بعد ذلك قصة موسى عليــه السلام مذ جعله نبيا الى أن أغرق الحق فرعون ، فى بيان موجز لم يتعد احدى عشرة آية قصيرة •

واختيار حديث موسى وما كان منه مع فرعون وقومه فى ســياق سورة النازعات وعلى ذلك البناء اللغوى المعجز انما كان على هذا الوجه لأن موقف موسى عليه السلام مع القبط أشبه شىء بالقيامة لمــا حصل من التقلبات والتغيرات وايجاد المعدومات من الجراد والقمل والضفادع على تلك الهيئات الخارجة عن العادات فى أسرع وقت ، وقهر الجبــابرة والمن على الضعفاء حتى كان آخر ذلك أن حشر بنى اسرائيل فنشطهــم من بين القبط نشطا رئيفا كلهم وجميع مالهم مع دوابهم الى ربهم ، وحشر جميع القبط وراءهم فنزعهم نزعا كلهم بحشر فرعونلهم بأصـــوات المنادين عنه فى أسرع وقت وأيسر أمر الى هلاكهم ، كما يحشر الأموات بعد احيائهم بالصيحة الى الساهرة ، ثم كانت العاقبة فى الطائفتين بما للمدبرات أمرا أن نجا بنو اسرائيل بالبحر ، كما ينجو المؤمنـــون يوم

---

(١) جاء ذلك فى سورة (طه / ٩ ، ص / ٢١ ، الذاريات / ٢٤ ، النازعات / ١٥ ، البروج / ١٧ ، الغاشية / ١) •

القيامة بالصراط ، وهلك فرعون وآله به ، كما يتســـاقط الكافرون بالصراط » (١) .

وهذا التشابه البالغ بين الموقفين لا يدركه حق ادراكه ولا يعيـه حق وعيه غير سيد الخلق صلى الله عليـه وسلم ومن كان وارثا له من العلماء العارفين ، لذا بدأ بيان ذلك بقوله (هل أتاك حـديث موسى) مخاطبا لأشرف الخلق اشارة الى أنه لا يعتبر هذا حق اعتباره الا أنت، مستفهما عن الاتيان للتنبيه والحث على جمع النفس على التأمل والتدبر والاعتبار مقدرا ومسليا له ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومهددا للمكذبين أن يكون حالهم وهم أضعف أهل الأرض لأنه لا ملك لهم كحال فرعــون فى هذا وقد كان أقوى أهل الأرض بما كان له من الملك وكثرة الجنـود وقوتهم ومرودهم فى خداعهم ومكرهم ... » (٢) .

وقد كان فى ختم هذا البيان بقوله (أن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) مزيد تأكيد لشديد الاعتلاق بين ما كان من موسى كليم الله ــ عز وعلا ، مع بنى اسرائيل وما يكون يوم ترجف الراجفة .

فالتعبير بقوله (عبرة) اشارة الى أن فى ايراد ذلك فى هذا السياق ما يعتمد معبرا من أحداث قصة موسى عليه السلام الى ما يكـون يوم القيامة فخير الاعتبار ما كان بحال غير المعتبر .

وفى التعبير بقوله لمن يخشى اشارة الى أن فقه الاعتبــار القرآنى لا يكون الا لمن خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب .

---

(١) البقاعى : نظم الدرر جـ٦ ورقة ٢٥٢ (مخطوط) رقم ٢١٣ تفسير

(٢) المرجع السابق .

وقد يأتى الاستفهام ، ويكون محور عطـاءاته النفى ، تدرك ذلك باديا فى قوله تعالى : « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » (الرحمن:٦٠) وقوله: : « فهل يهلك الا القوم الفاسقون » (الأحقاف : ٣٥) .

وما اجتمعت (الا) وادأة الاستفهام الا وكان محور عطـاءات الاستفهام النفى ، وجلى أن النفى حينئذ غيره حين يكون بأداة موضوعة له كلم ولن كما مضت الاشارة اليه ، الاستفهام المفيد للنفى ما يزال فيه عطاء الطلب وان تفاعل مع الطلب معان أخرى . وحين يفـــاد النفى بالاستفهام يكون القصد الرئيس الى تغلغل هـــذا النفى فى قلب المتلقى وعقله ، لأنه يبدو عيانا فى صورة طلب ، فيسعى المتلقى الى الحقيقـــة بنفسه فيعثر بها من بعد طلب واستشراف فتــكون فى القلب أوقـــع وأنفع ، وللنفس أنفة وأمتع ، فان كان النفى بأداته الموضــوعة له كان الأسلوب خبريا تقريريا لا اثارة فيـــــه ولا استشراف ، وقد يسكب فى الآذان ، والقلوب فى غفلة فيمر عليها وهو منطلق .

لتأخذ قوله تعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكـــر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خـــائفين لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (البقرة : ١١١) .

الآية وان تعددت أسباب نزولها (١) فان عطاءها عام فى كل مسجد وليس خاصا ببيت المقدس أو البيت الحرام ، وعـــام فى كل ضرب من ضروب المنع والتخريب ، وذلك وفقا لمـــا أقيم له كل مســـجد فثمت مسجد أقيم لآداء المكتوبات دون الجمعة ، ومسجد جامع ، وثالث لذلك ولتلقين العلم والمعرفة للعامة أو الخاصة أولهما معا ومسجد هـــو مثابة مجمع لقوى الخير : صلحا بين المسلمين وتخطيطا لاصلاح أو تخطيطا

---

(١) الواحدى : اسباب النزول ص ٢٢ ــ ٢٣ .

مانع فساد ، وتجهيزا لجهاد فى الله فلكل رســالته ، ومنع أى صنف منها أو جانب من جوانبها داخل تحت هذا الحــكم ، فكم من ذى سلطان قد زلق به قدمه فمنع وسعى فى تعطيل شىء من رسالة المسجد ، وكم من حاكم أبى الا المكتوبات فى مساجد الله ، فكمم أفــواه الآمرين فيهـــا بالمعروف ، والناهى عن المنكر ، والكاشفين خبث الفســاد ، ورجس الطاغوت فأولئك مرازيح تحت سطوة هذا الحكم القرآنى .

الآية تنفى أن يكون فى عالم المنع أظلم ممن منع مســاجد الله أن يذكر فيها أسمه ... وقد جاءت بهذا النفى فى تركيب استفهامى كيمــا يكون مستقرا فى كل قلب ، متغلغلا فى كل نفس ، فكان كالطــالب ادراك ذلك ، فاذا بكل متلق منقب مقارن وموازن بين ضروب المانعين بحثــا عن أظلمهم ، فلا يكون الا ما أراد القرآن الكريم أن يستقر قراره وترسخ جذوره فى نفس كل متلق ، فيلتقى الجميع على كلمة سواء : أن لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ....

لتنظر فى ايقاع المنع على المساجد ، والأصل أن يكون المنــع لمن يذهبون اليها لذكر الله ... ان فيه ايحاء بأن فى هذا المنع حرمانا لهــذه البقاع التى اختارها الله لتكون خير بقــاع الأرض من التلذذ بذكر الله عليها وكأنها تأنس بهذا الذكر وتتوق اليه ، وكأنه زادها ورحيقهـــا ، فمنع الذاكرين فيها هو فى الحقيقة منع لمساجد الله مما أقامها الله له ، وكأن سطوة أولئك الجبارين لم يكفها ظلم عبــاد الله ، فراحت تظــلم ما حماه الله لذكره من بقاع الأرض فاجتباها مواطن قرب ورحمـــة وجعلها مساجده ، فأى ضلال بعد هذا ؟ وأى مصير أعــد لأولئــك الجبارين « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين ، لهم فى الدنيــا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » .

فى تضاعيف هذا الوعيد للجبارين والتهديد والانذار يقوم التبشير للدعاة الى الله الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر أن الله ناصرهم وآخذ بأيدهم الى مدارج العزة والمتعة وان أحكم الجبارون فى كل زمان ومكان سطوتهم على مساجد الله فمنعوا الدعاة الى الله من مقال الحق وجلا عن سوء عقبى ملكهم وتناسوا أن الحق قد قضى أن لهم فى الدنيا خزيا وفى الآخرة عذابا عظيما .

قوله (ومن أظلم) تكرر فى القرآن الكريم فى غير موطن هذه الآية أولها ومنها « ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله » (لبقرة: ا ١٤٠) .

وقوله : « ومن أظلم من افترى على كذبا أو كذب بآياته » (الأنعام : ٢١) .

ومنها قوله « ومن أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها » (الكهف : ٥٧) الى غير ذلك .

« ولما كان هذا الاستفهام معناه النفى كان خبرا ، ولما كان خبرا توهم بعض الناس أنه اذا أخذت هذه الآيات على ظواهرها سبق الى ذهنه التناقض فيها » (١) .

وقد تعددت طرق المفسرين فى الجواب عن ذلك (٢) وخيرها عندى طريقان : —

الأول : تخصيص كل واحد فى هذه الآيات بمعنى صلته فصلة

---

(١) ابو حيان :البحر المحيط حـ١ ص ٣٥٧ .
(٢) الموضع السابق ، البرهان فى علوم القرآن للزركشى حـ٤ ص ٧٤ — ٧٧ .

الموصول عنصر فاعل فى المفارقة بين هـــذه الآيات ، فاذا تخصصت بالصلات زال عنده التناقض (١) .

الآخر : وهو أمكن فى المعنى وسالم عن الاعتراض ، وهو الوقوف مع مدلول اللفظ من الاستفهام ، والمقصود به أن هذا الأمر عظيـــم فظيع ، قصدنا بالاستفهام عنه تخييل أنه لا شىء موقه ، لامتـلاء قلب المستفهم عنه بعظمته امتلاء يمنعه من ترجيح غيره ، فكأنه مضـطر الى أن يقول : لا احد أظلم .....

وكثيرا ما يستعمل هذا فى الكلام اذا قصد به التهويل ، فيقـــال : أى شىء أعظم من هذا ؟ اذا قصد افراط عظمته ، ولو قيل للمتـــكلم بذلك : أنت قلت انه أعظم الأشياء لأبى ذلك ، فليفهم هذا المعنى ، فان الكلام ينتظم معه والمعنى عليه » (٢) .

مرفأ الســـفين :

هذا نزير من عطاءات تراكيب الاستفهام ، وادراك شىء منهـــا بحاجة بالغة فسيحة للسياق الذى يأتى التركيب على وجه لاحبه ففاضت عطاءاته وللقرائن والملابسات التى أحاطت به فحررت شـيئا من دقائق افاداته ، وبحاجة جد شديدة الى التفرس فى عناصر بناء المعنى وتشكيله، ومناهج ائتلاقها وكلما كانت الحاجة الى تلك المراجعة وهـــذا التفرس أشد كان العطاء أوفر وأجدى وأزكى وأسمى واختطاف العطـــاء من التركيب بأدنى مراجعة لا يجعل العطاء لائطا بالقلوب ، متغلغـــلا فى النفوس ؛ بل يكون عطاء غير شهى وعطاء مبتذلا تســـتطيع كل يد أن تنـــاله .

---

(١) ابو حيان : الموضع السابق .

(٢) الزركشى : البر[illegible] ٧٧

ومن سمات الكلمة الالهية المعجزة أنه على قدر التوفر عليها يكون المنح والعطاء ، فهى تعطى من تعشق اختطاف الجنى ما يقيمه وتمنح من كوثرها من أعد العدة للمراجعة والتفرس والتأمل ، والتدبر على قدر ما أعد ؛ فهى مائدة الله ، وهى التى لا تخلق على كثرة الرد ومن ثم حث القرآن الكريم على التدبر بكل ما تحمله هذه الكلمة من تبعة وعطاء وكتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » .

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ومفتاح القلوب طاعة الله والاخلاص حتى لا ترى فى الكون سواه وحينئذ تتوالى العطاءات . « هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب وان له عندنا لزلفى وحسن مآب » . صدق الله العظيم .

دكتور

محمود توفيق محمد سعد

مدرس البلاغة والنقد بجامعة الأزهر